رواية



ابتسامات القديسين

إبراهيم فرغلي

ابتسامات القديسين

رواية

إبراهيم فرغلي

ابتسامات القديسين

زمن الحب ليس كبيرا ولا صغيرا: هو الإدراك الفوري لكل الأزمنة في زمن واحد ،بكل الحيوات في هنيهة واحدة. لا ينقذنا من الموت، بل يجعلنا نراه وجها لوجه.

أوكتافيو باث

القسم الأول

وشيش داخلي...

فتحت عينيها مع أولى رنات الموبايل. مدت يدها إلـى الجهاز الأنيق صغير الحجم الذي يعلو المنضدة المسـتطيلة المجاورة للفراش، المحفور على سـطحها نقـوش آسـيوية بارزة. استغرقت الإضاءة الزرقاء التي توهجت بها شاشـة الجهاز عدة ثوانٍ أتاحت لها أن تلقي نظـرة خاطفـة علـى التوقيت المكتوب إلكترونيـا فـي أعلـى الشاشـة: ٣٠ :٦ أغمضت عينيها في محاولة لاستكمال نومها، لكـن الأفكـار العاصفة برأسها حكمت على محاولتها بالفشل.

نهضت ببطء. أنزلت ساقيها إلى الأرض تبحث بقدميها عن " الشبشب "، بينما عيناها نصف المغمضـتين تتابعـان الضوء الشاحب المتسلل من خصاص الشيش اللاحق للنافـذة المفتوحة. انتبهت لزقزقات العصافير التي تتكاثف في مثـل هذا الوقت المبكر، وومضت ذاكرتها بلقطات سريعة تسـللت إليها عبر حواجز الزمن.

اتجهت إلى الحمام مرورا بالصالة التي تتوسط البيـت وتطل على غرفة الخمس، والتي وضع أبوهـا بهـا جهـاز التليفزيون واعتبرها غرفة المعيشة. ونقل غرفة السفرة التي كانت تحتل المكان إلى الغرفة التي تحتوي مـدخل الشـرفة الكبيرة المطلة على " ميدان طلعت حرب ". مرت بالردهـة الطويلة المجاورة لباب الشقة الثانوي. والتي تتراص علـى يسارها: الثلاجة، " الديب فريزر "، ثـم الغسـالة يجاورهـا حوض صغير تعلوه مرآة مستطيلة. وأخيـرا يعلـن البـاب المفتوح في الواجهة انتهاء الردهة بالحمام. أما إلـى اليمـين فكان المطبخ الواسع المفتوح بدون أبواب.

غسلت وجهها عدة مرات. تأملت عينيها اللتين علقـت بهما آثار النوم والإجهاد. لاحظت زيـادة انتفـاخ جفنيهـا السفليين عن المعتاد، وظلت صورتهما عالقة بمخيلتها بعد أن أغمضت عينيها وهي تضع رأسها تحت المياه المتدفقة مـن الصنبور الفضي اللامع الحديث الطراز وتركت المياه تنساب فوق رأسها حتى تأكدت من ابتلال شعرها الأسود الحالـك، القصير نسبيا، وانتباه أعصابها بفعل دغدغة المياه البـاردة. جذبت المنشفة المعلقة إلى يسار الحوض " الروز " الذي تقف

أمامه، وجففت بها شعرها ووجهها في طريقها بين الحمـام والمطبخ.

بحثت عن جهاز تسخين المياه الكهربائي حتى وجدتـه. فتحت زجاجة مياه معدنيـة وسـكبتها فيـه. ضـغطت زر التشغيل، واتجهت صوب غرفة النوم. فتحت حقيبـة السـفر الكبيرة، وعبثت بمحتوياتها قليلاً حتى وجدت الكـيس الـذي خرجت به مساء الأمس من السوق الحرة بعد إنهاء إجراءات وصولها. أخرجت زجاجة البراندي الفرنسي المفضل لديها: " Three Barraels " واتجهت بها إلى المطبخ مرة أخرى. التفتت إلى باب الصالون على يمينها، والذي يواجـه بـاب الشقة الرئيسي. لاحظت وجود جهاز (Hi F I) ضخم يعلو أحد رفوف المكتبة المجاورة لباب الصالون، فغيرت اتجاهها فورا، وتوقفت أمام الجهاز وهي تتأمل مجموعة الاسطوانات المتراصة إلى جواره. اختارت من بينها اسطوانة لـ " بـول أنكا " فتحت باب الجهاز الذي خرج باتجاهها متيحا الفرصة لاستقبال ثلاث اسطوانات، ووضعت الاسـطوانة وأعـادت إغلاقه ثم ضغت زر التشغيل. وقبل أن تخرج من الصـالون انساب الصوت الرجولي الشجي يغنـي أغنيتـه الشـهيرة "

PAPA ". كان هذا كفيلاً بهزها من الأعماق، لكنها اكتفـت بأن أدارت ظهرها إلي، متجهة إلى المطبخ بخطـى ثقيلـة، تعلق البشكير الأخضر القاتم على كتفها، ترتدي " تي شيرت " أبيض قصيرا يتقاطع في منتصف ارتفاع ردفيها مع لون " الكيلوت " الأسود الصغير تحته.

انتهت من إعداد القهـوة الصـباحية بـنفس المعـايير اليومية، وكما تطلبها في باريس أو غيرها، قهوة سوداء قوية بدون سكر بعد أن أضافت إليها مقدار ملء غطـاء زجاجـة البارندي من محتواها. جلست على الأريكة الوثيرة المغطـاة بقماش قطيفة بلون دم الغزال، والتي تتوسط الصالة. التقطت سيجارة من علبة السجائر " الجلواز " بلونها الأحمر المميـز الذي ينتهي بدرجة من اللون الأرجواني وأشعلتها. تجرعـت رشفة من القهوة بعد أن استنشقت رائحتها المختلطـة بعبـق البراندي.

بدت واجمة وهي تحـدق باتجـاهي، دون أن تراني بطبيعة الحال، وهو ما أتاح لي تأمل ملامح وجهها. لم تكـن شقراء مثل أمها، لكنها احتفظت بشكل العينـين الواسـعتين بلون رمادي داكن، مظللتين بأهداب طويلـة أضـفت علـى

نظرات عينيها الحادة عمقًا زاد من جمالها الحاجبان العريضان المزججان بعناية. ورثت عن أبيها لون بشرته القمحية، وشعره الداكن الثقيل، ونعومة شعر عمتها نادية.

أعرف أنها لا تراني، وأدرك أنها تفكر في أبيها، وتتساءل عن السبب الذي جعل عمتها تطلب منها الحضور إلى المنصورة للمرة الأولى منذ سافرت إلى باريس قبل خمسة عشر عاما مضت.

مع التكرار الثالث لأغنية " بول أنكا " استعادت شريط حياتها، وثبتت اللقطات البعيدة التي جمعتها بأمها وأبيها في المنصورة، أو في الإسكندرية. مشاهد ضبابية بالأبيض والأسود، على عكس اللقطات التي جمعتها بأبيها في باريس أو دبي، فقد بت واضحة تماما وملونة.

كانت تحدق باتجاه صورة أمها المؤطرة ببرواز ذهبي فخم، والمعلقة على الحائط المواجه. اغرورقت عيناها بالدموع. لكنها لم تبك. تتأمل ملامح أمها التي بدت محتفظة بملامح عصرية رغم مرور كل تلك السنوات: عينان واسعتان زرقاوان، شعر كستنائي فاتح تميل بعض خصلاته إلى اللون الذهبي، يحيط بوجهها المستدير، ترسم ابتسامة

تزيد من جمالها دون أن تفتح شفتيها المنمنمتين أسفل أنفهـا الصغير المنحوت وفقًا لمقاييس الجمال النموذجية.

انتفضت وكأنها تذكرت شيئًا بشكل مفاجئ. اتجهت إلى غرفة النوم التي تتوسط المسافة بين غرفة السفرة والصالون، وعادت بعد دقائق وفي يدها اسـطوانة لمطربـة تسـمى " أنستاسيا " ـ ويبدو أنها حديثة العهد لأنني لم أكن أعرفها في حياتي السابقة ـ استبدلت بها اسطوانة " بول آنكا". صـوت قوي له بحة ذكرتني بشكل شخصي بمجد المطربات اللاتـي عرفتهن أمثال " تينا تيرنر " ، " ديانا روس " ، " دنا سمر " وحتى " ويتني هيوستن ". بدأت تتراقص مع الإيقاع القـوي المنظم. ابتسمت، وكنت أستطيع أن أقرأ أفكارها، فقد تذكرت شخصا يسمى " ديفيد "، عندما استمع إلى " أنستاسـيا " لأول مرة.. قال لها إنه لا يعلو على صوت الزنوج، لكنه انـدهش تماما لأنها أوضحت له أن " أنستاسيا " ليست سمراء.. ولـم يصدق ذلك قط إلا بعد أن شاهد " فيديو كليب " لواحدة مـن أغنياتها. ومع ذلك فقد علق قائلا بيقين.. لا شك أن عروقها تجري بها دماء سمراء. هزت رأسها في عصـبية وتأففـت كأنها استاءت لاستدعاء التفكير في " ديفيد ".

وتناولت قدح النساكفيه وهي في طريقها إلى الشـرفة. توقفت فجأة. عادت إلى غرفة النوم، والتقطت من حقيبتهـا " روب ساتان " طويلاً بلون كريمي فاتح. خرجت إلى الشرفة، وكانت الحركة قد زادت بشكل واهن في الشـارع الهـادئ. روعها التغير الذي أصاب المكان.

تأملت العمارة الحديثة شديدة الارتفاع التي حلت محـل الخرابة التي كانت تواجه مدخل البيت. وإلى يسارها التصقت بها بناية أخرى بدت أحدث تصميما تراوحت ألوان طلائهـا بين درجات البنـي والرمـادي. اختفـى صـف الـدكاكين المتلاصقة الذي بنيت مكانه العمارتان. حاولت أن تستدعيهم بذاكرتها المنهكة وتنعش ذاكرتي في نفس الوقت: عم محمـد المكوجي، مخزن تحميص اللب والفول السوداني الذي كـان عم سند يتنقل بينه وبين محل البيع في مواجهته والذي أغلق منذ زمن بعيد وتحول الآن إلى مطعـم للفـول والطعميـة. الكشك الصغير المستقر خالف الـدكاكين والـذي كانـت أم حمدي قد اتخذته مكانا لإعـداد الشـاي والقهـوة للمـارة، ولأصحاب الحوانيت حول الميدان، بدءا من عم بكر البقـال الذي لا يفصله عن بقالة عم محمد فهمي سوى محلين آخرين

كلاهما أيضا يعمل في مهنة واحدة هما عم فـوزي تـرزي القمصان الرجالى وعم حجازي المتخصص فـي الملابـس الحريمي. ثم عم عبده الحلاق. وأخيرا عم فاروق صـاحب محل تصليح الأحذية أسفل العمارة.

تذكرت ضجيج موقد اللهب الضخم بوشيشه العالى قادما من محل الفول والطعمية الصغير المواجه للبـاب الخلفـي لمسجد فريد المصري. استعادت صوت بائع لقمة القاضـي الذي كانت تعرف من صوته الحاد أن الساعة تدق السـابعة، ولم يتأخر يوما عن الموعد بصوته الذي يأخذ درجة حـادة عالية وهو يصرخ بتكرار لا يمـل ونغمـة رتيبـة " لوكـا ميديس"، ويعقبها بجملة لم تعرف لها تفسيرا قط وهي: " لـو كمة دي لوكمة ". ويختلط الصوت الحاد بأصوات مـذيعي برامج الشرق الأوسط الصباحية قادمة من مذياع ضخم يعلو رف خشبي وأسفله يقف عم محمد المكوجي، وهو يضـرب بالمكواة الحديدية الثقيلة في يده على أثواب الزبائن المغطـاة بالفوترة أو القماشة، التي تحول لونها من الأبيض إلى درجة قاتمة من درجات اللون البني، بفعل حرارة المكواة، مخلفًـا تلك الطرقات العشوائية المكتومة.

وسرعان ما يعلو الصوت الخشن لبائع الجاز في أرجاء الميدان: " يااااالصلي يا جاااااااز ".

بينما يجلس صاحب الصوت؛ العجوز ذو اللحية البيضاء بلون الثلج إلى مقود العربة الكارو مستندا إلـى مـا يشـبه اسطوانة مطلية بلون أصفر فاقع.

ابتسمت عندما تذكرت مشهد صندوق القمامة الذي كان يبدو وكأنه دولاب صغير مستطيل الشكل من الحديد الصدئ كان مأوى ليليا للقطط وموردا صباحيا لأكل الكلاب الضالة، والتي سرعان ما تصبح هدفًا لطلقات رجال البلدية، فتنتفض هي في فراشها على صيحاتها الملتاعة الكئيبة.

كان جلوسها في هذه الشرفة، في طفولتها البعيدة تلـك، يتيح لها أن تطل - عبر الخرابة - علـى البنايـة القديمـة المبقعة باللون الأصفر الباهت، والملصوق علـى جـدارها الجانبي صورة ضخمة لعلبة سجائر " بلمونت " تمتـد مـن الطابق الثاني وحتى الطابق الخامس. ويتوسط هـذا الجـدار نافذة عالية تجلس فيها سيدة عجوز طوال النهار بـلا أدنـى حركة، تذكرها بماري منيب في مسرحية " إلا خمسة " لكنها صامتة تماما كأنها بكماء.. وربما عمياء أيضا!

أما إلى اليمين فكانت الشرفة تطل على الميدان الوحيـد بحي " توريل " العريق، وعلى الجهة الأخرى مـن الميـدان يأخذ مسجد " فريد المصري " ناصية كاملة ويمتـد بعـده " شارع طلعت حرب " حتى مزلقان القطار القديم باتجـاه أول حدود " جديلة ".

الآن لا ترى سوى شرفات العمارة المواجهـة الفخمـة استبدلت بشرفاتها إطارات الألوميتال، ولا تبدو في أي منهـا أدنى مظاهر الحياة.

تركت الشرفة. توجهت إلى المطبخ لإعداد قدح القهـوة الثاني والإفطار، لمحت عقارب ساعة الحائط الخشبية العتيقة المعلقة في بهو غرفة المعيشة تشير إلى الثامنـة والنصـف. اندهشت لأن ساعتين زمن كاملتين مرتا منذ استيقظت، لكنها تذكرت أن ساعة الموبايل ما زالت مضبوطة علـى توقيـت فرنسا. لم يبق على موعد حضور عمتها سوى نصف ساعة.

أعرف أن عمتها هي الأخرى تتحرق لرؤيتها بعد غياب طويل كانت قد ودعتها قبله طفلة لا يتجاوز عمرها خمـس سنوات، وإن لم تنقطع اتصالاتهما التليفونية والبريدية خـلال كل تلك السنوات.

نعم... ستحضر وستطن أذناي بالوشيش الـذي يمـلأ رأسها ولا يسمعه سواي، إلى هنا حيث أنتظرها أنا أيضا بلا أي أمل.

نادية.. توءم رامي وحاملـة وشـيش أفكـاره بفضـل حساسيتها الشديدة وقدر التوءمة. ناديـة.. وجعـي وأنـين روحي؛ تماما كما كان رامي، ولعله لا يزال، وجعها الذي لا يستطيع أحد سواي أن يشعر به.

أطياف النفق....

كما كانت ـ وحدها ـ تشعر برامي كتوءم نمـوذجي، كنت أنا الذي أشعر بها وحدي؛ بعد تلك الرحلة الطويلة عبر نفق مظلم حلقت فيه هائما خارج حدود الزمن، أستمع إلـى خواطر الأطياف الهائمة حولي يتخبطون معـي فـي هـذه الفوضى الضبابية.

وها أنا ذا أعود إليها على يقين من أنهـا لـن تـدرك وجودي ـ كعادتها ـ هي التي لم تنشغل طوال حياتها سوى برامي ووشيش روحه الصاخب المتواصل.

نادية.. " البلية " كما أطلقنا عليها في طفولتنا، وحبيبـة حودة، الذي أحرق قلبي غيظًا من مهاراته المتعددة في صيد الحمام ولعب الكرة وقيادة الموتوسيكلات، والذي أحبته هـي لمهاراته، ناهيك عن وسامته، ومظهره الرجولي المميز الذي يسر له بزوغ لحية كثيفة غزيرة، صنعت لـه مـع شـعره الطويل الناعم جاذبية، ورفعت من مقدار " الكاريزما " التـي كان يتمتع بها، خاصة مع الفتيات، وأولهن نادية. لم يكن لي أمل في أى شيء حيالها. ولم يخطر ببالها إطلاقًا أنني أحبها. لم يمر ذلك بخيالها، ليس فقط بسبب حودة، أو لكوني صديق

أخيها " الأنتيم "، ولكن لأنني " أبو عضمة زرقا " ـ كما أطلق على بعض السخفاء ـ المدقوق على ذراعي اليمنى علامة الصليب، وحبيب كريستين كما كانت تتوهم.

نادية.. كانت أحد أسباب عودتي من النفق المظلم إلى هذه الحياة الفقيرة مرة أخرى؛ شبح غير مرئي يهيم طائرا مع الأثير على نغمات موسيقى روحها التي لا يسمعها أحد.

لم تشعر يوما بأي شيء خارج محيطها القريب بسبب المونولج المستمر في ذهنها بوحي من أفكار رامي، أينما كانت، حتى لو اختلست دقائق لتلقي بجسدها في "البانيو" تحاول الاسترخاء، فسرعان ما ستنتفض، لأن قلبها اعتصره إحساس بالألم لا بد أن يكون قد انتقل إليها من قلب رامي المفرط الحساسية والموجوع القلب أبدا!

زوجها الذي قرأ " الكاماسوترا " والروض العاطر للشيخ النفزاوي اعتاد ممارسة الجنس معها على ضوء الشموع، وصوت الموسيقى الصاخب لكي يجتذبها بعيدا عن أفكار رامي، حتى لا تفاجئه بصدمة الفتور، إذ ينقبض قلبها، وتتحول بين لحظة وأخرى، إلى كومة من اللحمة فاقدة لأي من مظاهر الحياة تحت جسد زوجها، وهو يحاول بكل جهده

ـ قبل الأورجازم بلحظات ـ أن يعتصر ثدييها، وما تصـل إليه يداه من أجزاء جسـدها ليعيـد إليهـا توهجهـا.. دون جدوى..

لكنه لم يفقد صبره قط، فقد كان شرودها الـدائم هـذا واحدا من أسباب انجذابه لها في كلية الطب التي اشتركا في الدراسة بها. هذا الشرود الذي يجعل وجهها الملائكي يقطـر بالعذوبة وهي تفرج ما بين شفتيها قليلاً فتبدو وكأنها تبتسم ـ دون أن تفعل ـ وهو ما حفر على ذاكرته حسا رومانسيا لم يستطع تفسيره، ولأجله قرر أن يتزوجها.

وما زال شرودها واحدا من علامات شخصيتها، تمامـا كما هي حالي الآن، روح شاردة بلا جسد. كتلـة معتمـة لا تعكس ضوءا ولا تملك وهجا داخليـا يجعـل منهـا كيانًـا محسوسا. أحلق هائما، وأمتلك القدرة على التقاط الأفكار التي تثقل الأرواح الهائمة حولي. لا شيء هنا مما وضع ـ فـي حياتي الأولى ـ كنقش على روحي، لا صليب، ولا وجـود لجسد مثقل بخطايا لم يرتكبها.

القديسون المتقاعدون لا دور لهم هنا، لا شهوة مـن أي نوع، ولا حور عين ولا أبكار أيضا. الوجود الحقيقي يبـدأ

بعد انتهاء رحلة النفق.. رحلتي المؤجلة في الزمن.. لكنني عدت لأصفي حساباتي مع الخوف دون أن أعرف من أين أبدأ.

بعد لحظات ستنطلق دقات جرس الباب معلنة حضور نادية، وستفتح حنين الباب، وتعانق كل منهما الأخرى عناقا هيستيريا مشوبا بمشاعر عميقة تليق بأم بديلة وابنة أخ لم تر أي منهما الأخرى منذ أكثر من خمسة عشر عاما.

ظلت نادية تحدق بابنة أخيها لدقائق، بنظرة عطوف، كأنها تحاول أن تقرأ مرور السنين على ملامح وجهها. وأن تعتذر لها عن تصاريف القدر، وربما لأنها، أيضا، كانت تريد أن تتأكد أن ابنة أخيها قد وصلت سنًا تتيح لها أن تعرف الآن.. كل شيء.

سألتها: إنت عندك كام سنة دلوقت؟

- ٢٠ يا عمتي.

بدت نادية متماسكة، وشديدة الثقة بما تريد أن تظهره من مشاعر لابنة أخيها. كتلة من الرقة والرهافة اللتين ميزتا شخصيتها منذ طفولتها وحتى هذه اللحظة. والآن، وهي تتسلم ما تعتبره أخطر مسئولية في حياتها، يتعين عليها أن تستعين

بمخزون القوة النفسية المتراكمة لديها من خبـرات رامـي الداخلية العميقة. لكنها أجلت ما تريد أن تقوله حتى تعـرف من ابنة أخيها تفاصيل سنوات الغربة الطويلة في باريس.

أصرت نادية على إعداد الفطور بمفردهـا. اسـتعانت بالموجود في الثلاجة مما كانت قد أحضرته هي فـي اليـوم السابق لوصول حنين. سألت حنين عمتها عن جدها وجدتها. فأخبرتها أنهما يقيمان فترة الصـيف بالإسـكندرية وأنهمـا ينتظران زيارتها نهاية الأسبوع.

تأملت حنين مائدة الفطور بشغف طفولي: طبـق فـول بالسمن البلدي، وآخر تراصت به شرائح الجـبن الرومـي واللانشون. طبق بيض بالبسطرمة. عسل أبـيض. قشـدة. وطبق صغير احتوى كمية من " المورتة " البيضاء أعـادت لحنين ذكرى طقوس تسييح الزبدة تحت إشراف جدتها:

تجلس السيدة العجوز - المستأجرة من إحـدى قـرى الريف المحيطة بالمنصورة - بثيابها وطرحتهـا السـوداء، وفي وسط المنور المجاور لباب الشقة، وأمامها وعاء نحاسي ضخم يعلو موقد الجاز، وبملعقة خشـبية ضـخمة تسـتمد حركتها من الذراع السمراء القوية الممسـكة بهـا تسـتمر

الحركة الدائرية في قوام الزبدة الأصفر الكثيف، تطفو علـى سطحه طبقة لها قوام أخف قليلاً، كأنها رغوات ثخينـة لهـا لون كريمي فاتح، تكشطه العجوز بملعقتها الضخمة، وتضعه في عبوات بلاستيكية صغيرة، تتحول، بعد أن تبـرد، إلـى "المورتة " التي ستأكلها حنين، باستمتاع طفولي، في الأيـام اللاحقة.

المائدة المعتادة للإفطار، كأنها تلـك الطقـس اليـومي الطفولي البعيد.. بجوارها تجلس عمتها، لكنهـا هـي التـي ستحكي لها هذه المرة تفاصيل أعوام طويلـة مـن الغربـة واليتم، بلا أم، ولا أب، باستثناء زياراته المتقطعة.

حدثتها عن المدرسة الداخلية التي عاشت بها طفولتهـا في باريس، أشارت إلى الأطباق الموضوعة أمامها وقالـت لعمتها إن هذا الفطور جعلها تتأخر في تقبل الفطور الفرنسي لفترة، وضحكت وهي تقول إنها أدمنت بعد ذلك البطـاطس "البيوريه " و " الباستا " و " التارت دي نوتيلا ".

أخبرتها عن المدرسات الفرنسيات، وخاصـة " مـدام بياتريس "، وكيف أنهن ساعدنها في تجاوز شعورها بالغربة، وباليتم، وفي استعادة الثقة والإحساس بالأمان.

صمتت قليلاً وكأنها تستعيد شريط ذكريات طفولتها في فرنسا ثم قالت:

ـ ده كان صعب جدا يا عمتي.

رسمت نادية ابتسامة مشجعة وهي تؤمن على ما تقوله لها " حنين " بهزات متتابعة من رأسها. فقد كانـت تعـرف، بالضبط، مدى صعوبة حياة كهذه. ولم تكن تشك للحظة فـي أن تكون حنين أقل حساسية من أبيها، الذي تعرف هي كـل شيء عن مشاعره ورؤيته الحساسة للأمور، بفضـل ذلـك التوافق الروحي العجيب، الذي جعلها تشعر بما يشعر بـه، وتقرأ أفكاره منذ بدأت في إدراك الأشياء حولها.

كما إنها تابعت، عبر رسائل ابنة أخيها وحكايات رامي بعد عودته من فرنسا في بعض الرحلات التي طالـت عـن المعتاد، تفاصيل علاج حنين من الثأثأة التي لازمتهـا فتـرة طويلة في أواخر مراحل طفولتها.

حكت حنين لعمتها مصاعب حياتها بنصف لسـان فـي مدرسة داخلية، لا يمكن أن تجد فيها مكانًا يحقق لها خلـوة تبتعد فيها عن ذلك العالم الذي سبب لها آلامـا لـم تعـرف أسبابها الحقيقية، وجعلها تعيش بعيدة عن أهلها في عـالم لا

تنتمي له، لكنها مضطرة للتكيف معه، تحارب عزلتها بنصف لسان وعقل مشلول بسبب الضغط النفسي للثأثأة التي أفقدتها القدرة على التعبير عن نفسها لفترة طويلة من حياتها، إذ إن الكلام الذي كان أقرانها يثرثرون به ليلاً ونهارا بالنسبة إليها كان جحيما لا يطاق.

امتحانات السنة الأخيرة في المرحلة الابتدائية، ولم تكن تجاوزت العشر سنوات، ظلت علامة فارقة في حياتها: كانت قد ثرثرت قليلاً مع " سيلفي "، رفيقة غرفتها، القادمة مـن " جرينوبل " (Grenoble) لتدرس في العاصمة الفرنسـية بعد طلاق والديها. حكت سيلفي لحنين، فـي تلـك الليلـة، ملابسات علاقة أبيها الجزائري وأمهـا الفرنسـية. جمعـت بينهما علاقة متناقضة شعارها الحب بينما يندس في أعمقاها كراهية دفينة ولدها الغضب الكامن في أعماق أبيها بما فعله الفرنسيون بأهل وطنه. ولم يستطع أن يغفر لزوجته قـط - رغم خطابه الليبرإلى - انتماءها للمحتل الفرنسي بينما يعيش هو في أحضانه كواحد من أهله!

خلافات الرأي، تلك، تحولت تـدريجيا إلـى مشـادات عنيفة، ما إن تخبو حتى يعاود الأب افتعال أخرى يلقنها فيها

دروسا عن الطريقة المثلى للحياة، يشحنها بالغضب العميـق المتراكم في قلبه، محاولا تكدير روحهـا بخلـق الإحسـاس بالذنب تجاهه وتجاه ابنتهما، مـدفوعا بنـوازع انتقاميـة لا شعورية، حولت حياة الأم إلى جحيم أتلف أعصابها تدريجيا، مما ألزمها بالحياة لفترة طويلة من حياتها ـ بعد الطـلاق ـ في إحدى المصحات الفرنسية. وقرر الأب أن يلحـق ابنتـه بهذه المدرسة ليبعدها عن تلك الأجواء الصاخبة.

لم تعرف حنين متى انتهت ذاكرتهـا مـن استحضـار مشاهد هذه العلاقة التي حكتها لها سـيلفي طـويلاً، ومتـى تسللت صورة أمها من تحت الوسادة لتشتبك بالصورة التـي يتشبث بها خيالها، قبل ذلك اليوم المشئوم الذي أعلـن فيـه والدها أن أمها ماتت في المستشفى.

كما إنها لم تكن متأكدة مما إذا كانت مستغرقة في نومها تتوهم، أم إن روحها تسحب منها فعلاً. لكن ضـيق تنفسـها الملح جعلها تصرخ بوهن وقد تسلل إلى أطرافهـا البـاردة شعور بالخدر والتنميل، سرعان ما بدأ في الانتقال من قدميها إلى ساقيها. وبعد لحظات كانت سيلفي قد استدعت المشـرفة المسئولة والطبيبة، بينما حنين ترتجف بشدة، لا تقوى علـى

التحكم في جسدها. تشاهد شبح الموت يطوف حولها، فيتشنج جسدها وتصرخ حين تكتشف فقدانها للقدرة علـى الكـلام، وعندما استطاعت أن تستعيد عافيتها بعد ثلاثة أيـام بفضـل العلاج والعناية المركزة، كانت قد فقدت القدرة على النطـق بشكل سليم.

استطاعت نادية أن تربط سريعا بين ما تحكيه لها ابنـة أخيها وبين ما تعرفه هي من رامي: لقد اسـتغرق علاجهـا عامين كاملين كان رامي يقضي أغلب الوقت خلالهمـا فـي باريس قريبا من حنين. فقط يعود لتـدبير نفقـات العـلاج والإقامة ثم يعود سريعا. واضطر إلى بيع شقة الإسـكندرية التي كان والده قد اشتراها له قبل اختفاء كريستين بعام واحد، خاصة وأنه استنفذ كل وسائل الاستدانة، ولم يعد إلا بعـد أن أعلنت له الطبيبة المعالجـة شـفاء حنـين، ودور وجـوده بجوارها في سرعة شفائها.

حكت حنين لعمتها عن سعادتها بـرحلات أبيهـا إلـى فرنسا: تجوالهما في " الشانزلزيه "، وزيارة " اللوفر " يوميا لمدة أسبوع، رحلات " اليورو ديزني "، وحفلات السينما أيام الآحاد. وقضاء يومي السبت والأحد بعيدا عن المدرسة حيث

كانت تنتظر حكايات أبيها المسترسلة باللغة العربيـة حتـى يخطفها النوم.

ثرثرت كثيرا عن تفاصيل حياتها في باريس، وخاصـة بعد انتقالها للإقامة مع عائلة أحمد حسين ـ صديق طفولتنـا ـ وزوجته الفرنسية وابنته ناتإلى التي أصـبحت الصـديقة المقربة لحنين حتى هذه اللحظة. وأعلنت حنين لعمتها عـن ارتفاع معنوياتها بعد حصولها على منحة للحصـول علـى الماجستير والـدكتوراه فـي الدراسـات الاجتماعيـة مـن السوربون. لكن الشيء الوحيد الذي ترددت فـي أن تحكيـه كان علاقتها بنفس الشخص الذي تردد اسمه في وعيها بشيء من الغضب المشوب بحب عميق!.

ألعاب السرعة!

عندما كنت أستيقظ على صوت دقات الأجراس القادمة من صوب الكنيسة القريبة، تتداخل الدقات ذات الرنين المعدني المتتابعة بصورة كريستين ـ أمك ا يرحمها ـ وعماد.

هكذا بدأت نادية تحكي لابنة أخيها. وتغمرني السعادة لذكرها اسمي ـ رغم أنها لم تترحم على ـ فأستعيد فورا ذاك الزمن البعيد الذي لا أستطيع العودة إليه، ربما لأن ما يكفيني الآن هو الاستماع إلى صوتها وهي تحكي، وتطلق وشيشها الداخلي للمرة الأولى. تحكي فيكشف حكيها عن حساسيتها ورهافتها ـ وربما أن هذا تصوري الذي يوهمني إياه حبي لها ـ دون أن تعرف أنني أقرأ ما تحكيه وهو يدور في ذهنها، ويبدو لي أجمل.

... وبمجرد أن أفتح عيني أدرك أن رامي قد استيقظ هو أيضا، ولكنه، وكما كل أيام الجمعة والأحد، لا يستطيع أن يبدأ يومه باصطحابهما. سيعيد الغطاء فوق رأسه، ويكور نفسه مثل كائن دقيق داخل قوقعة بحرية ملقاة على رمال الشاطئ، محتفظًا لنفسه، ولي طبعا، بذلك الصخب الداخلي الذي لم يكن بإمكان أحد أن يسمعه سواي، كنت أستمع إلى

أغاب ما يدور بذهنه، وأشعر بمشـاعره. أحيانًـا أسـتيقظ مندهشة من دموعي التي تغافلني أثناء النوم. أحاول أن أتذكر الحلم الذي أبكاني. فأدرك أنه هو الذي كان يحلم.

بعد زواجي بفترة قصيرة ظن زوجي أنني ممسوسـة. وقال لي موضحا أنني أضحك كثيرا أثناء النوم. وفي أحيان أخرى أبكي طويلا. لكنه لم يكن يعرف أنه لا حيلة لي فـي ذلك، إذ كانت أحلام رامي العبثية إلـى حـد الكوميـديا، أو كوابيسه المزعجة هي السبب في ذلك.

مرة واحدة فقط جاءني رامي ضاحكًا ليحكي لي تفاصيل الحلم الذي حلمت به ليلاً وأنا أركض خائفة من بواب العمارة العجوز وهو يمسك بعصا غليظة، ويتهمني بأنني كسـرت " القلة "التي يشرب منها. ارتبكت للحظـة، قبـل أن أشـاركه الضحك، وأنا مندهشة من أنه استطاع أن يرى حلمـا مـن أحلامي. ولكنه توقف عن متابعة أحلامي بعد ذلـك حيـث تضخمت روحه بالحزن الذي تسرب إلى بالتدريج وملأ ليلي بالكوابيس التي كانت تلاحقني لليال متتابعة حتى أسرع إلـى أمي ـ جدتك ـ لأحكي لهـا، فتتـأملني واجمـة قبـل أن توصيني بألا أحكي الحلم لأي أحد وبعدها تردد " اللهم اجعله

خير " ثم تشرع في حكايتها المكررة عن والدتنا التي عذبتها طويلاً، ولساعات تجاوزت ١٨ ساعة حتى اضطرت الدايـة للاستنجاد بالمستشفى: نقلوني هناك، ورامي رأسه مش عايزة تخرج، وجيتي أنت وراه بنص ساعة.

المكان الوحيد الذي لم يكن مسموحا له بمرافقتهما فيـه هو الكنيسة. وكان مشغولاً بالتفكير في الطريقة التي يستطيع بها تجاوز هذا القيد. يعرف أنني أستمع إلى وشيشه، لكنه لم يعد يمتلك القدرة على التراجع عن تقليب الأمر فـي خيالـه مصحوبا بصوت دقات الكنيسة، والتراتيل التي كثيـرا مـا استرق السمع إليها عندما نذهب سويا إلى " خالتي درية " في شارع " السكة القديمة " حيث تطل الشرفة الجانبيـة للبنايـة القديمة، ذات السقف العالي، على فناء الكنيسة ويقف مشدوها يراقب الصبية والبنات ـ أيام الأحد ـ في شغف..

كان شغوفًا بفكرة التحول إلى المسيحية، ولم تقنعه كثيرا آراء جدك الذي بوغت برغبته، وحاول أن يثنيه عن أفكـاره بطريقته الهادئة، دون جدوى. وظل طويلاً يعيش في حلمـه بأن يصبح مسيحيا، ويتمنى كل ليلة أن يحلم بالمسيح، كمـا

يراه بعيني طفولته. الإله الجميل ذا الشعر الأشقر والعينـين الزرقاوين.

وكما ملأت أفكاره كل حياتي. كانت كريستين ـ أمـك ـ هي التي تملأ عقله وروحه وتفيض نفسه بها إلي.. إلـى ذهني وروحي.

تقريبا.. لم يتسع خياله لأي امرأة أخرى سوى مـرتين: الأولى عندما تعلق بحب " أبلة سوزان " مدرسة الرسم فـي المدرسة الإعدادي: لم يكن مشغولاً بالرسم على الإطلاق، لا يستحوذ على خياله سوى شخصيات الروايات التي يلتهمهـا يوميا، وخاصة " فهمي " في ثلاثيـة محفـوظ، و "أوليفـر تويست " " لديكنز " و " دارتانيان " فارسه النمـوذجي بـين فرسان دوماس، و " أزميرالدا " فيكتور هيجو: نموذج الأنثى التي يبحث عنها في كل علاقاته. يتقمص شخصـياتهم فـي خياله ويجمعهم معا، أو يتسلح برداء دارتانيان لينقذ أزميرالدا من الضابط الفرنسي الذي يكرهه. أو يترك لمشاعره العنان لحب " مريم " متأملاً حياتها المأساوية بعد رحيله باعتبـاره فهمي ابن السيد " أحمد عبد الجواد ".

لكن هذا العالم، بكل تفاصيله، سقط فجـأة مـن سـقف ذاكرته ليفسح الطريق لصورة " أبلـة سـوزان " شـبيهة " ميرفت أمين "، ولكن بعينين واسعتين عميقتين، ومـلأ مـن أجلها صفحات كراسة الرسم بخطوطه السـخيفة ورسـومه المشوهة.

أما الثانية، فهي " ماريا " اليونانية التي تعلق بها جـدا، وكانت بديلاً طبيعيا لأمك في فترة انفصل خلالها كل منهمـا عن الآخر، بعد موت عماد الدرامي.

نعم.. كان موتي دراميا يا نادية.. معـزولاً ووحيـدا. مجهدا بتعب القلب الذي أنهكه المرض، وغارقًا في الحمـى والخوف المضني من المجهول، متوسلاً ليسـوع بـالغفران باسم الأب والابن، وبأبينا الذي في السماوات، وبحق كرامات الشهداء والقديسين. غير أن أحدا لم يشفع لي يا نادية. وغبت مذبوحا بالألم إلى زمن آخر، يشقيني أننـي لا أسـتطيع أن أحكي لك عنه، وما زلت بعد عودتي الدرامية هذه لا يمكنني أن أحقق تحديا يماثل ما فعله رامي وكريستين.. فـي ذلـك الزمن الجميل..

تلعب الحجلة منذ البلاطات الأولى لسور الكورنيش المحاذي لمبنى المحافظة، وحتى مبنى المكتبة العامة المغلقة دائما، والمواجه لفيللا الشناوي الأنيقة بتصميمها الذي لا يخلو من فخامة، والتي نعبر إليها في الجهة الأخرى من شارع البحر على حدود المختلط.. نتأمل التماثيل الحجرية البيضاء تجسد فتيات لهن ملامح جمال إفريقي قديم، والموضوعة بجوار الباب الرئيسي الذي يتوسط المدخل الزجاجي الملون بألوان صارخة يطغى عليها الأحمر والأزرق، نتسلل بخيالنا إلى ما بعد الباب نحاول اختلاق السيناريو المناسب للحكاية داخل الفيللا التي ارتبطت في خيالنا ـ أنا ورامي وكريستين ـ بالقصور المسحورة. غامضة وممتلئة بالأسرار التي خلفها البشر: عائلة الشناوي التي لم نعد نسمع عنها كثيرا الآن، بينما بقيت آثارهم دلائل أرستقراطية قديمة: قصر محمود الشناوي المهيب بقبابه المميزة وطرازه المعماري الأوروبي، والذي تحلو إلى مبنى مديرية الأمن القديمة على حدود كفر البدماص مطلاً على الميدان القريب من جامع النصر. وقصر الشناوي الكبير الذي تحجبه الأشجار والسور المحيط به والمباني حيث يقع

قريبا من تقاطع شارع البحر مع شارع جيهان، الذي ارتـبط في أيام مجده بأسماء الإقطاعيين، والحفلات التي أقيمت بـه بعضها بحضور أم كلثوم وعبد الوهاب، قبل أن يصبح بدوره الآن شبه مهجور.

نصعد بعدها على المشاية العلوية التي تبدأ مـن أمـام السور الخلفي لمدرسة " المنصورة الثانوية بنـات "، وتعلـو تدريجيا فوق كوبري القطـار الـذي يصـل بـين طلخـا والمنصورة، ثم نهبط إلى الجهة الأخرى من المشـاية عنـد مدخل " الهابي لاند " نأكل الآيس كريم " قبل أن نعود مـرة أخرى إلى موقعنا الأثير في توريل.

تلك كانت الأيام الخوإلى يا نادية. سنجد الجميـع فـي انتظارنا: " جلال " الأسمر ذا الجسد المـدكوك، و " علـى " الذي ينتصر لي دائما على كل من يطلق على لقـب " أبـو عضمة زرقا " و " جولي " النصف ألمانية، بشعرها الطويل الأشقر وجسدها النحيل وعينيها الزرقاوين، والتـي ينتظـر جلال لأجلها لعبة المنديل متحرقا، ويختار الفريـق المضـاد لفريقها بحيث يقف في مواجهتها متخذًا من المنـديل ذريعـة للاقتراب منها هائما، يحيطها بذراعيه دون أن يلمسها ليمنعها

من الركض بالمنديل إذا اختطفته. لكنه غالبا ما يفقد تركيـزه بتأثير اقترابه منها أكثر مما ينبغي، وهو ما يعطيها الفرصة لتهرب بالمنديل وسط تشجيعنا الحماسي لهـا. بينمـا تقـف "بسنت " بالمنديل بينهما، وهي تكاد تحترق من الغيرة والكمد لتعمد جلال المستمر تجاهلها بينما أنتظر أنا ورامي ألعـاب السرعة: " الاستغماية الجديدة " أو " الماك " لنعلن للجميع أننا الأسرع بلا منافسة.

ولعلى كنت الأسرع يا نادية بلا منازع. رحلت وحدي، مذبوحا بالألم. مشفوعا بالدعاء والنذر والصلوات وبصـيام الميلاد والقيامة. دون جدوى، والآن لست سوى حالة شبحية، لا يراني أحد، ولا أثر لكريستين أو رامي أيضـا، وأمـامي تقف حنين ابنتهما علامة فارقة علـى عبـث الحيـاة التـي تعيشونها يا نادية.. بينما تحكين لها حتى ما تكـاد ذاكرتـي تهمله تحت ضغط الألم.

الطنين الأخير...

قاطعت حنين عمتها لتسألها إذا ما كانت ترغـب فـي شرب شاي، وهي تتجه إلى المطبخ لإعداد قهوتهـا.تسـهب عمتها في التفاصيل بينما يأكلها الفضول لتعرف مـا حـدث لأمها ولأبيها.

ـ هو إحنا هنشوف بابا إمته يا عمتي؟

رفعت حنين صوتها بالسؤال وهي تقف بالمطبخ.

ـ مش عارفة يا حنين لسة. يمكن آخر الأسبوع.

أحست بالتوتر والقلق، وانتبهت إلى أن جزءا من عقلها يردد أغنية " بول آنكا " دون وعي منها، بإلحـاح، كعادتهـا حين تظل تردد الأغنية التي تسمعها للمرة الأولـى فـي أي صباح.

Every night my papa would take me
And Tuck me in my bed
Kiss me on my head
After all the prayers were said

أحست بأنها تفتقد أباها بشدة. لكنها في نفـس الوقـت كانت مدفوعة بالصبر على ثرثرة عمتها بفضـول اكتشـاف شيء ما لم تكن تعرفه. ملامح خاصة بأمها. سر غامض عن أبيها. حكاية عن أهل أمها الذين لا تعرف عنهم شيئًا

I could tell

That mama and deep down so did she
So did she
When she died
My papa broke down and cried
All he said was: God, why not take me?

خرجت حنين من المطبخ وهي تحمل صينية وضـعت عليها قدح القهوة وكوب الشاي. سألت عمتها وهـي تضـع الصينية على المنضدة الصغيرة أمام عمتها:

ـ أنت عمرك ما خرجت معاهم يا عمتي؟

ـ لأ طبعا.. خرجت معاهم.. بس مش كثير.

حكت نادية لحنين عن المرات القليلة التي خرجت فيهـا معنا: زيارتنا " لدار ابن لقمان " التي ذهبنا إليهـا مبهـورين وفخورين بالتاريخ المنقوش أعلى الجدار المواجـه للمبنـى القديم البسيط، وهو نفس التاريخ الذي أسر فيه " لويس التاسع " بعد معركة " فارسكور "، وعرفنا مـن الموظـف الـذي اصطحبنا في جولتنا بمتحف اللوحات التي تجسـد المعركـة أنها كانت تدور بعد سنوات قليلة من بناء المدينة التي عرفت باسم " جزيرة الورد " بناها " الملك الكامل " لتكون استراحة عسكرية لمواجهة الجيش الأيوبي للحملة فـي عـام ١٢١٩. وخرجنا محبطين من فرط بساطة المكان، وسذاجة الحـارس

الذي رافقنا إلى غرفة صغيرة بها نافذة تطل على " كـوبري طلخا " وأشار إلى مكتبة صغيرة ومقعد خشبي مطليين باللون الأسود أنهما كانا يخصان ابن لقمان صاحب الدار!

قالت نادية: كانت لهم ألعاب سـخيفة، بالـذات عمـاد ورامي. تصوري إنهم كانوا بيتسابقوا يروحوا عند مزلقـان القطر عشان يناموا تحته وهو معدي. وبعدين أنا ما كنـتش صاحبتهم قوي، يعني أنا ما كنتش زي أبوكي. دايمـا كنـت باحس إن فيه حاجة بتفصلني عنهم.. مش بارتاح لهم.. يعني أنا كنت متخلفة شوية وأنا صغيرة.. وكمان كريستين وهـي صغيرة كانت شبه الولاد.. وطول النهار قاعدة معـاهم فـي الشارع.

وأضافت نادية أنها رغم ذلك لم تمتنع عـن صـحبتنا كثيرا إلى " الهابي لاند " أو لشرب الكوكتيل عند أحمد أمين في شارع العباسي أو " الكاساتا " في كـازينو الشـجرة أو "مانيرفا ".

ثم ضحكت وهي تقول: لو سمعتني نسرين وأنا بـاقول على الأماكن دي هتقول على دقة قديمة. دلوقت فيه أمـاكن جديدة.. إيشي " فوندي " و " كنتاكي " و " جرين كورنر " و

" علاء الدين " وكل يوم مطعم جديد، أو " كافيـه" ده غيـر نادي جزيرة الورد اللي قاعده فيه طول الليل والنهار:

وصرخت نادية كأنها تـذكرت شـيئًا مهمـا: أيـوه.. افتكرت.. كنت باحب أروح معاهم جنينة الحيوانات.

طبعا يا نادية.. وكنت تستمتعين بكل الطقوس بدءا مـن شراء التفاحات الخضراء الصغيرة المثبتة الصغيرة المثبتـة بالعصي النحيلة والتي تعلو كلا منها تلك الطبقة الحمراء من الحلوى تملأ الصندوق الصغير الذي يحمله " عم على " على كتفه. تتسللين من بيننا لتذهبي ركضا إلى بيت الطـاووس.. مكانك الأثير.. حيث تستمرين طويلاً تتأملين الطائر البـديع بانبهار.

Every time I Kiss my children
Papa's words ring true
Your children live through you
They'll grow and leave you too

وأحست نادية بتمال حنين التي اغرورقت عيناها وهـي تردد الأغنية في ذهنها، فحكت لها هذه الواقعة التي غابـت عن ذاكرة الجميع إلا نادية فيما يبدو: قالت لها إنها اكتشـفت غيابي أنا وكريستين في واحدة من زياراتنا لحديقة الحيوان،

وإنها ورامي بحثا عنا طويلاً في أرجاء الحديقة حتى وجـدنا في بيت الطيور نقف متقابلين وقد تلاصقت شفتانا.

كنا صغارا يا نادية، وما حدث كان مجرد نزوة صبيانية أدركنا بعدها وجود حائل كبير يفصل بيننا، فقد كـان تفـاهم رامي وكريستين واضحا للجميع. كانت هناك لغـة خاصـة يستخدمان فيها نظرات العيون، ولكني كنت أفهمهـا بحكـم قربي منهما، ولم يكن ذلك يعنيني في شيء لأنك أنت التـي تمنيت أن أقف أمامها بـين كـل تلـك الطيـور محـاطين بالزقزقات المنغمة والهـديل، أتأمـل عينيـك السـوداوين العميقتين.

لكن شيئًا من هذا لم يحدث لسبب بسيط هو أنني تركت كل شيء متوجها إلى مصيري المحتوم. أمسكت يـد أمـي أتحسسها برفق. تلاشت صورتك من خيالي، وكانـت تلـك البرودة القادمة من عمق الروح تدهمني بسرعة. أمسكت كف أمي بقوة. فتحت عيني لأحتفظ بصورة وجهها. ابتسمت لهـا مشجعا ومطمئنا إياها بأنني ذاهب إلى جنة المسـيح.. وبـدأ شعوري بالتلاشي.. أغوص في دوامة الوعي التي تسـحبني بعيدا خارج حدود الزمن.

ألغاز الروح....

مزقني بكاؤك الصامت يا نادية، بينما تقودين سـيارتك، منطلقة من شارع طلعت حرب، في طريقك إلى "مستشـفى الكلى " على امتداد سور الجامعة. لم ينقطع بكـاؤك سـوى للحظات أثناء مرورك من مدخل المستشفى الأنيق، وسرعان ما أجهشت بالبكاء مرة أخرى، لا تجدي المناديـل الورقيـة التي كانت تتحرك بالتتابع بين مآقيك شيئًا.

أنقذتك المكالمة الهاتفية التي اسـتدعوك بهـا لطـارئ يستلزم دخولك غرفة العمليات. ربما أنني وحدي الذي يعرف ما يجيش بصدرك. الصمت المفزع الذي تشعرين بـه الآن بعد تلك السنوات الطويلة من الصخب الداخلي، الذي تصنعه أفكاره، ليترك لك بدلا منها حنينًا.. فماذا ستفعلين؟

* * *

أمسكت حنين بنسخة من مجلة " Voici " كانـت قـد أخرجتها من حقيبتها. قلبت صفحاتها وهي مشـتتة الـذهن. توقفت للحظة أمام إحدى الصفحات ضمت مجموعة صـور لاثنين من نجوم المجتمـع الفرنسـي: " جـان باسـكال " و "إلودي"، يفترشان منشفتين على رمـال الشـاطئ بهـاواي. ترتدي إلودي " مايوه " بيكيني أحمر مزركشًا بورود بيضاء

صغيرة، بينما جان باسكال يرتدي " شورت " كحليا. الصفحة المقابلة تضمنت صورة واحدة ضمتهما معا وهما يتعانقان في وسط مياه البحر. قلبت الصفحات مرة أخرى. توقفت أمـام صورة لسيدة ضخمة تشـي ملامحهـا بأنهـا فـي أواخـر الأربعينات. شقراء. تقف عارية، لا ترتدي سـوى النصـف السفلي من مايوه " بكيني " أسود، تستعرض جسـدا اسـتعاد رشاقته بعد ترهل طويل. ترفع ذراعيها عاليا لتعطي الفرصة للرجل الخمسيني ذي الشعر الفضي الواقف خلفهـا لتـوزع الكريم على امتداد ظهرها، قبل حمام شمس على ظهر أحـد اليخوت.

الصفحة التالية ضمت صورا " لبريتني سـبيرز " مـع عائلتها أثناء إجازة بلوس إنجلوس، ترتدي ثوبا أبيض شـفافًا لا يخفي النصف العلوي من مايوه "بكيني" أزرق وشـورت جينزقصير .

توقفت أمام صورة " كاميرون دياز ". تأملت مجـرى النهر الضيق بين نهديها. قارنت حنين بينهما وبـين نهـديها لتعيد التأكيد لنفسها على ضآلة حجم نهديها. استعادت للحظة الإحساس بكفي " ديفيد " وهما تعبثـان بصـدرها. أغلقـت

المجلة، دخلت الغرفة. التقطت الحقيبة السوداء التي تخـص جهاز الكمبيوتر الشخصي الذي أهداها " ديفيد " إياه، أخرجت الجهاز من الحقيبة، ووضعته أعلى المنضدة، التي تشبه مكتبا صغيرا، المستقرة بجوار الحائط المجاور للبـاب وأوصـلت القابس بالكهرباء. فتحت بريدها الإلكتروني. وجدت رسـالة واحدة تحمل اسمه، فتحتها في لهفة، ولم يكن مضمونها سوى كلمة واحدة: Salut. انتابها شعور خانق بالضيق. هل يحاول اختبار رد فعلها عقب المشادة التي سبقت سفرها إلى مصـر بيومين؟ سألت نفسها قبل أن تعيد إرسال نفس الرسالة إليـه بلا تعليق وأغلقت الجهاز بسرعة.

أشعلت سيجارة بعد أن خرجت إلى الصالة. التقطـت " الريموت كونترول " من على الأريكة بجوارهـا. ضـغطت على زر تشغيل التليفزيون. كانت القناة الأولى تعرض فيلما قديما بالأبيض والأسود، وشاهدت اسم الفيلم على ركن أسفل الشاشة " عائلة زيزي ". فتابعته بشغف طفولي، ولم تكن قـد شاهدته قبل ذلك.

عندما انتهى الفيلم لم تجد ما تفعلـه. تحركـت باتجـاه الصالون. تأملت الاسطوانات والأشرطة المحيطة بجهاز الـ

(Hi Fi) وابتهجت عندما وقعت عيناها علـى اسـطوانة لفريق Enigma. وضعت الاسطوانة في الجهاز، وسـرعان ما فاضت الموسيقى الغامضة والمستدعية لأساطير الـروح أرجاء المكان، دون أن تفقد الإيقاع المميز على عكس الكثير من موسيقى الـ New Opera. عادت إلى غرفة النوم مرة أخرى. التقطت من حقيبتها كتابا لبودلير وهي تتجه بتثاقـل صوب الفراش.

وقبل أن تغفو ظلت تقرأ.. توقفت عنـد فقـرة بعينهـا أعادت قراءتها مرتين متعاقبتين " يقول المغنون إن السـعادة تسمو بالروح وترهف القلب. كانت الأغنية على حق في ذلك المساء، بالنسبة لي. فعائلة العيون هذه لم تجعل قلبي رقيقـًا وحسب، بل إنني شعرت بالخجل إلى حد ما مـن كؤوسـنا ودوارقنا التي تفوق ما نشعر به من ظمأ. حولت نظري إلى عينيك، يا حبي العزيز، لكي أقرأ فيهما فكري. غرقت فـي عينيك رائعتي الجمال والملهمتين بالقمر فإذا بك تقولين لي: (هؤلاء الناس لا يمكنني تحملهم بعيونهم المفتوحة كـأبواب العربات! ألا يمكنك أن ترجو من رئيس الخدم إبعادهم مـن

هنا؟) ما أصعب التفاهم يا ملاكي العزيـز، ومـا أصـعب تواصل الفكر حتى بين الأحباب!..

وغالبها النعاس، فاستسلمت للنوم، وتركتني لألحاق بعيدا صوب نادية وروحها التي كنت أسمعها تناديني من بعيد.

* * *

فتحت عينيها. وكلما استعادت وعيها أصـبح صـوت جرس الباب أعلى صوتًا. وضعت كتاب " سام باريس " على المنضدة بجوارها وهي تنهض من الفراش. فتحـت البـاب لتفاجأ بابنة عمتها نسرين..، وجه طفولي مبتسم. شعر أسود طويل يحيط بوجه كامل الاستدارة. عينان عسليتان واسعتان تتوهجان بالحيوية والذكاء. بدا الشبه بين هذه الفتاة وعمتهـا نادية كبيرا. احتضنتها بقوة.

لم تكن أي منهما قد رأت الأخرى قبل هذه اللحظة، إلا عبر بعض الصور التي تبادلاها بالبريد. لكن علاقة وثيقـة بدأت بينهما قبل عامين على شاشات أجهزة الكمبيوتر والبريد الإلكتروني، وهو ما جعل لقاءهما حميما كصديقتي طفولـة، رغم السنوات الخمس التي تمثل فارق العمر بينهما.

أخبرتها نسرين أن أمها ستتأخر في المستشفى، وأنهـا ستقضي الليلـة معهـا. ثرثرتـا طـويلاً، حـول بـاريس والمنصورة، وأحوال كل منهما قبل أن تقترح نسرين علـى ابنة خالها الخروج للتنزه في شوارع المنصورة.

أبدت حنين دهشتها من الزحام الشديد، وتوسع المدينـة بشكل كبير، الكورنيش الجديد على امتداد المشـاية السـفلية التي تبدأ من خلف " مسرح أم كلثوم " الملحق بقصر الثقافة، وحتى " نادي جزيرة الورد ".. مصابيح الإضاءة ذات الطابع الإنجليزي الكلاسيكي المعلقة على أعمـدة نحاسـية مطليـة باللون الأسود أشبه بالموجودة في شوارع لندن القديمة كمـا تصورها الأفلام. العمارات الحديثة العالية المتراصة علـى امتداد المشاية وحتى الجامعة.

قالت نسرين إن المنطقة سحبت البساط من حي توريـل كحي أرستقراطي قديم، واجتذبت كل طبقات الأثرياء الجـدد الذي كونوا ثرواتهم في السبعينات والثمانينات من الانفتـاح والتجارة في كل شيء.

من بين تجمع المطاعم الأمريكيـة المواجـه لمـدخل الجامعة الرئيسي اختارت حنين مطعم " تكا ". حكت نسرين

لابنة خالها عن حياتها في المنصورة، ودخولها الجامعة هـذا العام لدراسة طب الأسنان.

ـ ما قدرتش أجيب مجموع كلية طب زي مـا مامـا كانت عاوزة، حاولت أقنعها إني أسافر فرنسا أدرس هنـاك بس طبعا ما وافقتشي.

ـ خسارة، يا ريتك جيتي عشتي معايا.. علـى الأقـل كنت كسرتي إحساسي بالغربة هناك شوية.

صمتا للحظات كانت حنين تتأمل خلالها المكان ورواده من الشباب والعائلات.

ـ عددا المحجبات زايد شوية.. ولا أنا بيتهيألي؟!

ـ لأ عندك حق.. السنين اللي فاتت كانوا أكثر شـوية كمان عن كدا.. دلوقت فيه توازن شوية. فيـه بنـات كتيـر بيلبسوا على الموضة وبنطلونات ضيقة.

كانت حنين تشعر بدفء وجودها مع ابنة عمتهـا فـي المنصورة، مما فتح شهيتها للثرثرة. حكت لها عن حياتها في باريس، دراستها بالسوربون. اهتماماتهـا. سـفرياتها إلـى أوروبا. لكنها لم تتورط في وصف إحساسها اللانهائي بعـدم الأمان، رغم روابط العلاقات والصلات المسـتمرة بـبعض

مدرساتها منذ كانت فـي المدرسـة، وصـداقات الطفولـة، وزياراتها الأسبوعية لصديقتها ناتإلى أو أختها. تمامـا كمـا اعتبرتها الأم: سيسيليا وزوجها أحمد حسين.

وقبل أن تودعها أسفل باب العمارة.. مدت نسرين يدها إلى حنين تعطيها مجموعة من الأوراق في مظروف أصـفر كبير، كانت حنين تظن أنه يضم أوراقًا تخص نسرين التـي قالت لها قبل أن تختفي:

ـ ماما عاوزاكي تقري الورق ده قبل ما تشوفك!

القسم الثاني

ـ١٠ـ

استيقظت مفزوعا على صوت دوي طلقات رصـاص بدت وكأنها تطلق من أعلى العمارة، متتابعة، وبإلحاح يثيـر التوتر إلى حد الرعب. تتوقف للحظات قبل أن يعاود الدوي انهياله بنفس الإلحاح، لكن صوته هذه المرة بدا أقـل حـدة وكأنه قادم من أعلى إحدى العمارات على الجهة الأخرى من الميدان، أو كأنه رجع الصـدى لصـوت الطلقـات الآليـة المقبضة.

خرجت إلى الصالة. وجـدت أبـي، مرتـديا جلبابـه الأبيض، واقفًا في وسط الصالة تكتسي ملامح وجهه بالفزع يحاول أن يخفيه عنا، بينما ارتمت نادية في حضن أمي التي كانت تقف أمام غرفة نومها وأبي، تمتزج بملامـح وجههـا بقايا آثار النوم مع الدهشة والذعر. كانت عقـارب السـاعة على الحائط تشير إلى أنها تجاوزت الثالثة صباحا. عدت إلى غرفة نومي مرة أخرى، ولحق بي أبي، ننظر عبر خصاص النافذة الخشبي لعلنا نرى أو نفهم شيئًا. لكن دون جدوى. لـم تكن هناك أية أصوات أخرى. فقط، طلقات الرصاص تدوي

في " ميدان فريد المصري " كسابقة هي الأولى من نوعهـا، ولعلها الأخيرة.

الهلع الذي أصابنا جميعا تحول بمـرور الوقـت إلـى إحساس بالألفة مع صوت طلقات رصاص البنـادق الآليـة. لكن الفضول كان قاتلاً: من هؤلاء؟ هل هي مطـاردة بـين أعضاء الجماعات الإسلامية وقوات الأمن؟ ولماذا لا نسـمع لأي منهم صوتا؟ ومتى صعدوا إلى سطح المنزل؟ وكيف؟

تذكرت أنني في مساء اليوم السابق كنت قـد شـاهدت دبابتين أمام مبنى مديرية الأمن القديمة، تحيط بهما عشرات من سيارات قوات الأمن المركزي التـي امـتلأت بحشـود الجنود. كنا جميعا نشعر أن هناك أحداثًا غير طبيعية، نترقبها دون أن نملك القدرة على تحديد طبيعتها.

انقطع صوت الدوي المرعـب فجـأة مخليـا السـاحة لزقزقات العصافير التي تستهل بها توريل صباحاتها مع أول إشارات الفجر الذي تهب مع نسماته نسمات لمسات من اللون الرمادي يكسر بها عتمة الليل. وتبدأ السماء رحلتها لاستعادة ألوانها المبهجة.. ككل صباح.

فتح أبي النافذة بحذر.. لم يكن هناك أثر لأي شيء، أو أحد. كأن مجموعة من أشباح الفضاء هبطت لتحدث كل هذا الصخب المرعب، ثم عادت من حيث أتـت دون أن تتـرك أثرا.

في الصباح دبت الحياة في توريل كعادتها كل يوم، كأن شيئًا لم يحدث في الليلة الماضية. في طريقنا للجامعـة، لـم نتوجه إلى أول شارع طلعت حرب الـذي يبـدأ مـن عنـد المحافظة كالمعتاد، وإنما سرنا في الاتجاه المعاكس نحـاول أن نرى آثارا لما حدث خلال الليل. شاهدنا آثارا لبقع قاتمـة من الدماء أعلى جدار العمارة المقابلة لعمارتنا. ولاحظنا أن سيارة " عم سعد " " البيجو " البيضاء قد ثقبت أبوابها بفعـل اختراقات الرصاصات المجهولة لها؟!

لا أذكر الآن على وجه الدقة إذا ما كان هذا الحادث قد وقع قبل يومين من مقتل السادات في حادث المنصة الشهير، أم أنه كان بعد ذلك. سألت بعض شهود الواقعة وأخبروني ـ بلا يقين ـ أنها أعقبت مقتله، ربما لأنهم ربطوا بين الحادث وتفاصيل مواجهة قوات الأمن لمخطـط الجماعـات، الـذي تبينوا أن مقتل السادات كان أول خطوطه العريضة، وظهرت

توابعه بعد عملية اقتحام مديرية الأمن في أسـيوط، والتـي أسفرت عن قتل مائة شخص، بعد يومين من حادث المنصة.

بعد موت السادات الدرامي غابت الذقون مـن حولنـا فجأة. ومكثت بدوري في البيت أغلب الوقت أنـا وزملائـي ـالإخوة ـ الذين كانوا على وشك أن يصبحوا منظمين. هل تحقق فعلاً ما ظلوا يبثونه في عقولنا علـى مـدار عـامين كاملين؟! في الخطب الأسبوعية، والندوات، ولقاءات الخلاء، وجعلنا نردد مثلهم، غاضبين أن الحاكمية وأن الطـاغوت يعيش أيامه الأخيرة! هل كانوا يعرفون توقيت العملية فعلاً؟ أم أنهم فوجئوا مثلنا بهذا المشهد الدرامي؟!

توقفت عن إلقاء الأسئلة، وامتنعت عن الـذهاب إلـى المسجد مكتفيا بالصلاة في البيت، كنت أشعر أنني في ختـام هذا الفصل من حياتي.

منذ بدأت فكرة الخلاء وقد تسلل إلـى هـذا الشـعور، تركت نفسي في البداية مستسلما لاستمتاعي بلعب كرة القدم، وبعض الألعاب الرياضية الجماعية على اعتبار أن المسـلم القوي خير وأحب عند ا . لكني فوجئت لاحقًا بفكرة العقاب والتي أسموها " التعزير " لمن يتخلف عن اتفاقات الجماعـة

أيا كانت، ولم تكن تلك العقابـات تتجـاوز تكـرار تمـرين الضغط لعشر مرات مثلاً. ولكني لم أرتح كثيرا لهذه المسألة: حق أمير الجماعة الكامل في الطاعـة، كنـت " انعزاليـا " بطبيعتي، وحتى في العلاقات الاجتماعية وصداقاتي، مهمـا انخرطت فيها، فإنني أنسحب منها لأتسال إلـى عزلتـي. لا أقبل توجيها ولا نقدا من أحد، لا من المدرسين، ولا من أبي، ولا من غيره. في المدرسة كنت أواجـه حـالات العقـاب الجماعي التي قد تلحق بالفصل لشغب الـبعض، بـالرفض، وبعناد، بدعوى أنني أن أتلقى عقابا عن أخطاء غيري. فـإذا كان المدرس عنيدا، أدعي أنني مريض بالقلب، وأن ضـربة العصا فيها خطر على حياتي!! لم ينجح أي من المدرسين في ضربي حتى لو اضطروا لرفتي من المدرسة، كمـا حـدث مرة، أمام عنادي الشديد في الامتناع عن الاستسلام لضـربة العصا التي تلقاها زملاء الفصل جميعا كأنها قدر!

ويبدو أن هذا هو الاختبار الأول الذي تجريـه قيـادات الجماعة – أيا كانت – لمعرفتها بخطورة الفردية على روح الجماعية. ولهذا لم أفهم إصرار الأمير على أن نقف جميعـا في صف واحد متجاورين بلا أية حركة لمدة نصف سـاعة

قبل أن نبدأ مباراة كرة القدم التي حضرنا لأجلها إلى الخلاء في مساحة الأراضي الخالية قريبا من " قولونجيل "، قبل أن تتحول كلها إلى مبان سكنية في الوقت الراهن.

انصاع البعض بدون تفكير، بينما آثر آخرون السخرية الصامتة دون أن يجرءوا على الاعتراض. أما أشرف فقـد خرج من الصف وهو يقول لمساعد الأمير صاحب اللحيـة الخفيفة وملامح الوجه الآسيوية. ورائحة العرق النفاذة، إنـه سيجلس بعيدا حتى يبدءوا المباراة.

رسم الأخير ابتسامته الصفراء وهو يؤكد لأشـرف أن هذا سيعرضه للتعزير.

ـ ليه؟!

ـ لأن ده أمر من أمير الجماعة لازم كلنا نطيعه.

ـ بس أنا تعبان.

ـ فيه ناس كتير تعبانين بس مستحملين.. وأنت ما شاء الله لسة شباب.

ـ اللي تعبان وقادر يقف هو حر يا سيدي.

ـ طاعة الأمير من طاعة أولي الأ...

وقاطعه أشرف بنبرات بدت أقرب إلى الصراخ:

ـ أمير إيه؟! وجماعة إيه؟ والأمير ده أحسن مني فـي إيه؟! أنا ما باطعشي غير ربنا.. ومش عاوز لا ألعب معاكم ولا أعرفكم، ولا عاوز أشوف حد منكم أصلاً..

وأدار لنا ظهره منصرفًا قبل أن ينهي آخر كلماته التـي أصابتني في العمق. لكني لم أتحرك، مراعاة لشعور الأميـر الذي كنت أكن له المودة، لدماثته المفرطـة، علـى عكـس مساعده صاحب الابتسامة الصفراء الكريهة. لم أحبه أبـدا، حتى وهو يرسم ملامح الخشوع المبالغ فيها وهو يصلي.

المهم أن ما فعله أشرف كان القشة التي أمسـكت بهـا بقوة لأعود إلى معسكري الذي أنتمي أنا وأشرف إليه.

أما دوي طلقات الرصاص الذي هز عرش صمت الليل المهيب في توريل فقد كان ثاني الإشارات. وبمقتل السـادات كان لا بد من مواجهة السؤال. فإذا كـان أتبـاع الجماعـة وأنصارها الذين حاولوا أن يستقطبونا قد حققوا ما يريدون ـ إذا كان موت السادات هو ما أرادوه ـ فما الذي حققته أنـا لنفسي؟ ما الذي يعنيه لبس السروال الأبيض تحت جلبـاب، والامتناع عن مشاهدة التليفزيون لأنه حرام، والامتناع عـن اصطحاب العائلة إلى المصيف لنفس السبب، ووضع السواك

في جيب القميص، وإطلاق اللحية والتعطر المسك المعطوب ذي الرائحة الخانقة؟! بل وما الذي يعنيه الوقت المبذول فـي قراءة فقه السنة والخطايا الكبرى أو تلبـيس إبلـيس وفقـه السيرة والاستماع إلى أشرطة الشيخ كشك وحضور النـدوة الأسبوعية للشيخ يسري؟ و.. و.. إذا كانت نهاية هذا كلـه هو القتل؟!

عدت ـ غير آسف ـ إلى شكسبير وسارتر وروايـات نجيب محفوظ، على يقين من أنني ودعت مرحلة من حياتي لم تضف لي شيئًا، خاصة وقد تيقنت أن شيئًا من هذا لن يعيد عماد للحياة، كما أنه لن يعيد كريستين من حيث قـررت أن تذهب:

بعد عودتنا من المقبرة سرنا أنا وهي صامتين. ودعتها عند باب البيت بإشارة من رأسي وأشارت لي مودعة. بينما آثار البكاء على عينيها جعلت ملامح وجهها تشـبه ملامـح القديسات.

فرقنا موت عماد كل إلى طريـق.. ذهبـت أنـا إلـى المسجد، وهي إلى الدير، حيث عرفت بعد شهرين بقرارهـا المفاجئ بالرهبنة.

كان موت عماد ثقيلاً، وقاسيا، بدرجة لم تكن لنا القدرة على احتمالها. سألت ا طويلاً أن يخفف عنه المرض فـي مراحله الأولى، ثم حفظت " سورة يس " بعد أن تفاقم مرضه بشكل متسارع في الأسابيع اللاحقة، أقرؤها لأجله كل يـوم، ومع استمرار تأخر حالته بدأت أستجدي ا بحق كل ما هو مقدس أن يشفيه. وقرأت الصلوات المسيحية مع كريسـتين: "أبانا الذي في السماوات. يتقدس اسمك ليأتي ملكوتك. تكـن مشيئتك في السماء... "

موت عماد كسر قلبينا. قتل شيئًا في روحي وروحهـا، ولم يستطع أي شيء بعد ذلك أن يعيد إلينا ما كسر..، لـولا وجود حنين بعد ذلك بسنوات.

حنين التي أكتب لأجلها هذه المذكرات. ربمـا لتعـرف بعضا مما حجبناه عنها، أو لأعزيها عن سنوات طفولتها التي قضتها هناك وحيدة في باريس. أو ربما أنني أكتب لنفسي أنا أيضا لأستعيد كل تلك الذكريات.. كلها معا.

ـ ٢ ـ

اغتيال السادات جعلني أسـتعيد عزلتـي الاختياريـة، وإعادة التفكير في كل شيء مرة أخرى. أشفقت عليه بصدق، رغم شماتة داخلية عميقة سيطرت على عند سماعي الخبـر، مذهولاً، من الـ (بي بي سي).

في أثناء مشاهدة العـرض العسـكري علـى شاشـة التليفزيون كثيرا ما فكرت في خالى المعتقل، وفي الأسـماء الكثيرة، والكبيرة التي اعتقلها خلال الأسابيع القليلـة التـي سبقت احتفال ٦ أكتوبر،بينما أتأمل مظاهر الغطرسة الباديـة على وجهه المتغضن بالإرهاق والتعب.

وعندما انقطع الإرسال التليفزيوني، انفجر السؤال فـي أعماقي آملاً أن تكون الإجابة بالإيجاب، هل قتلوه؟!

هل يستطيعون إقامة الحكومة الإسلامية إذن؟! ما الذي سيحدث في الأيام المقبلة؟ وهل يمكـن للقـادم الباهـت أن يسيطر على كرسي محاط بكل هذا الرعب؟ إلى أين تسـير مصر؟

كانت الإجابات كلها لا تدعو إلا للقلق والخـوف مـن القادم المجهول. هل يملكون القوة والقدرة على فعل ما هـو

أكبر من قتل السادات؟ وهل اخترقوا المؤسسـة العسـكرية فعلاً؟

بعد عودتنا من المقبرة سرنا أنا وهي صامتين. ودعتها عند باب البيت بإشارة من رأسي وأشارت لي مودعة، بينما آثار البكاء على عينيها جعلت ملامح وجهها تشـبه ملامـح القديسات.

ثم بدأت أسئلة أخرى كان على أن أجيب عنها وأهمهـا هو هل كنت أنتمي إليهم؟ في البيت، كان أبي مستاء تمامـا من مظهري العام، وحتى أمي ونادية. كـانوا يـرون فـي شخصا غريبا يحاول العودة إلى عصور الظلام. وبدأ أبـي يشعر بكراهية حقيقية لخإلى " محسن " ظنًا منه أنه السـبب في هذه العودة الظلامية إلى ماضٍ سحيق. وكنت أجادل أبي وأعانده في نقاشاتنا حول الموضوع، بينما كنت في أعمـاقي أعرف أنني بالنسبة لأصحاب الذقون لم أكن مثلاً للشـخص النموذجي الذي يبحثون عنه، ولم أتمتع بمحبـتهم، فـي ا ، بشكل كامل كما كان حظ آخرين من الأصدقاء الذين غسـلوا لهم عقولهم تماما، بحيث أصبحوا مهيئين للمراحل التالية.

الحقيقة أنني لم أنضم إليهم نقمة على الفقر، ولا بحثًا عن مكانة في مجتمع لا تتكافأ فيه الفرص. وإنما، كنت فقط، مقهورا لفقدان عماد الموحش. انتظمت في الصلاة يوميا بالمسجد لأدعو له بالرحمة، ودرءا للاكتئاب الثقيل الذي سيطر على كل حواسي. وهناك استدرجونا بثواب تحفيظ القرآن للأميين، وتدريجيا.. ومع ذلك، كنت أعود بين آن وآخر لروايات ديكنز وفيكتور هوجو ومحفوظ، وسارتر، حتى في أثناء قراءتي للخطايا الكبرى أو فقه السنة ومعالم في الطريق، وكتب السيرة، وآداب قراءة القرآن وغيرها من كتب الأفكار الأساسية لحسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين.

وربما لهذا كنت دائما على حافة المسألة، دون رغبة حقيقية في الاندفاع إلى السلفية. أحببت تفسير سيد قطب " في ظلال القرآن ".. فكر جديد، تناول مختلف، يضع المجتمع المعاصر نصب عينيه ويعرف الغرب جيدا. تابعت أعداد مجلة الدعوة، وتعرفت أفكار " صالح سرية " صاحب أول محاولة انقلابية في عهد السادات فيما عرف بحركة الفنية العسكرية.

تعاطفت مع خطبة " الشيخ عمر التلمسـاني " المرشـد العام للإخوان المسلمين آنذاك. ودهشـت مـن جماهيريتـه الكبيرة، امتلأ مسجد فريد المصري عـن آخـره، وفرشـت الحصر حول الميدان كله خارج المسجد، وفـي الشـارعين اللذين يحيطان بسور المسجد. أحببت فكرة أن من أهل الجنة شابا نشأ في طاعة ا . كما كنت أحب تلاوة القـرآن مقلـدا قراءة " الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ". وأذنـت بصـوت وصفه " الشيخ عبده" إمام مسجد فريد المصري بأنه صـوت "معيزي "، بينما وصفه آخرون بأنه يشبه الأذان السـعودي، شغوفًا بفكرة أن المؤذنين أطول الناس أعناقًا يـوم القيامـة. تبرعت لإخواننا المجاهدين الأفغان في حربهم مـع الاتحـاد السوفييتي. وأعطيت الشيخ يسري السـاعتين اللتـين كنـت أمتلكهما عن طيب خاطر بعد انتهاء ندوة الثلاثاء بالمسجد.

حاولت كثيرا تقليد الرسول - بعد يأسي من محـاولات استدعائه في أحلامي - بالنوم على أرض الحجرة الخشـبية الصادة، تقشفًا وزهدا وسيرا على نهجه. لكن الآلام المبرحة التي أصابت ظهري وضلوعي منعتني من الاسـتمرار فـي مثل هذه المحاولات البائسة.

لكني لم أستسغ كثيرا فكرة الجماعة والأمير. في أعماقي كان هناك شيء ما يصطدم بهذه الفكرة، فالإجابات المغلقة بحدود قدسية الما بعد: ما بعد القدرة على التخيل، وما بعد المعرفة، كانت - ولا زالت - جوهرية جدا وأساسية. كان هناك شيء ما في ممارساتهم ضد فكرتي عن الحياة. يحولونها بأفكارهم إلى زنزانة ضيقة مسورة بحدود الممنوع والمحرم، وبأفق ضيق يتناسى أربعة عشر قرنًا كاملاً من تطور البشرية، فاقدين الإحساس بالزمن والوعي بالتاريخ.

كنت أفكر كثيرا في كريستين محاولاً أن أتخيل حياتها في الدير بردائها الطويل ووجهها الملائكي. عيناها تنتزعاني من أعماق النوم. يناوشني صوتها وهي تردد تراتيل غامضة لا أفهم منها شيئًا. تجلس في مغارة مظلمة يضيء وجهها المتبتل وهج الأيقونة التي تصلي أمامها تمثل المسيح مصلوبا. وفي نفس المغارة في ظلمة أخرى أرى نفسي أحوم مع المتصوفين في حلقة ذكر كبيرة، يدور رأسي، وأغلق عيني وأفتحهما وفقًا لتتابع الوميض الذي يلاحقنا دون انقطاع.

وبعدها استرجعت حلمي الطفولي الذي يسر لي رؤيـة الرسول والهالة النورانية الربانية تبشرني بالنبوة. ومع ذلـك فقد اكتفيت بالصلاة في البيت، ووسعت تدريجيا مـن عـالم قراءاتي، بينما تعصف بروحي حالة من القلق، حتى رأيتهـا يوما مصادفة. وأدركت منذ اللحظة التي التقت فيها عينـاي بعينيها أن شيئًا عميقًا سيتغير في حياتي. نعم.. لـن يتحقـق حلم النبوة الذي كنت أحتفظ به في عمق أعماقي كأنه صـك الغفران.. أخرجتني من الجنة.. لكنني عرفـت معهـا جنـة أخرى.

- ٣ -

فترة الفسحة في " مدرسة الملك الصـالح " الإعداديـة كانت بمثابة الفترة النموذجية للوقوف على البروز الأسمنتي الذي يتوسط جدار سور المدرسة الموازي للبوابة الحديديـة الضخمة. فمن هنا، موليا ظهـري لمبارايـات كـرة القـدم ومشجعيها، ستكون الفرصة أمامي سانحة لمشاهدة الفتيـات في السكن الداخلي لطالبات " المدرسة اليونانية " المواجهـة لنا، فتيات شقراوات بيضاوات نحيفات مثيرات للخيال. أمـا هي فقد لمحتها، في إحدى مرات وقوفي على السور، وهـي تخلع ثيابها غير منتبهة للنافذة المفتوحة، ولا لوجودي الـذي خرج في تلك اللحظة عن حدود الوعي بأي شـيء سـواها، بفضل لقطة لمحتها للحظات قبل أن تقوم ذاكرتـي بتثبيـت الكادر الذي صاحبني في حياتي طويلاً: عاريـة.. لكنـي لا أرى من مكاني سوى بياض الكتف البض، والجزء العلـوي من ظهرها، والنهد الصغير الذي لم تظهر صـورته سـوى للحظات رفعت خلالها ذراعيها قبل أن تهبط بهمـا سـريعا، وهي تجذب ستار ثوبها، مسدلة إياه على المشهد الذي هـز روحي وقطع أنفاسي وأصابني بالاضطراب لفترة طويلة.

عندما رأيتها بعد كل تلك السنوات عرفتها فورا، بـدت أطول من صورتها كما يحتفظ بها خيالي، وأكثر نضجا مـن اللقطة الطفولية الثابتة داخل الكادر. دهمتني عيناهـا أثنـاء مروري أمام " كازينو منيرفا " عينان رماديتـان واسـعتان، شعر قصير بني داكن، جسد مدملج، رشيق ومتناسق.

لم تكتف بتأثير عينيها على روحي، إذ باغتتني بسـؤال عن الساعة، وأجبتها، بعد أن خطفت نظـرة سـريعة إلـى الساعة في يدي. وحاولت أن أتمالك نفسي وأنا أسألها عمـا إذا كانت تواجه مشكلة بسبب اللهفة التي سألتني بهـا عـن الوقت، والجدية الشديدة التي أغرقت ملامح وجهها.

وفاجأتني بالبساطة التي ردت بها علي، بلكنـة عربيـة مكسورة، وهي تومئ باتجاه العمارة المقابلـة أنهـا تنتظـر اتصالا هاتفيا من أمها في " النادي اليوناني " تمام الخامسـة، وأنها فوجئت بالمكان مغلقًا.

الدقائق الخمس التي فصلت بين بدء هذا الحوار ظهور " أليسكو " حارس النادي، ملأتها بثرثرة عشوائية حاولت بهـا أن أعرف منها أكبر قدر ممكن من المعلومات عنها وعـن حياتها، لكن النتيجة لم تتجاوز بعض الذرات حتى لمحت،من

خلف كتفي، شخصا نادت إليه وهي تلوح، وبنبرة لم تخل من غضب: أليسكو.. وانصرفت بسرعة تـركض إلـى الجهـة الأخرى من الشارع باتجاه باب العمارة التي يقع النادي فـي طابقها الخامس، دون أن تلتفت إلي.

* * *

بعد أسبوعين من هذا اللقاء الخاطف، عدت إلى البيـت في ساعة متأخرة. دخلت غرفتي بعد أن ألقيت تحية مقتضبة على أمي التي لم تكن لتدخل إلى فراشها قبل أن تطمئن على حضوري وإعداد العشاء. لكني أخبرتها أنني سأنام فورا لأن لدي محاضرات مبكرة في اليوم التالي. والحقيقة أنني كنت، فقط أحاول إخفاء سكري البين عنها، وتماسكت حتى دخلـت غرفتي، وأغلقتها وأنا أرد على أمي تحيتها التي تسللت إلـى من خلف الباب: تصبح على خير يا حبيبي.

كان ما حدث يشبه الحلم. لكنه حدث فعلاً، وها أنـا ذا على سريري، أنام بثيابي التي تتعطر بعبق ماريـا، تـدور الغرفة رأسا على عقب كلما أغمضت عيني بفعـل كـؤوس النبيذ وأكواب البيرة التي تجرعتها في نخبها خـلال سـهرة النادي اليوناني.

يوم الأحد التالي لرؤيتها لم أدافع رغبتي في الذهاب إلى حيث صادفتها قبل أسبوع. ومنذ الساعة الرابعة وقفت أمـام كازينو منيرفا قليلاً، ثم حومت إلى الجهة الأخرى من شارع البحر أسفل العمارة التي تأوي النـادي اليونـاني، وأخيـرا لمحتها فعلاً تهبط من سيارة أجرة برفقة فتاتين شقراوين، قبل أن يعبرن الطريق باتجاهي. أوقفتها وحاولـت أن أذكرهـا بنفسي. سددت نظرها وهي تعتذر لي عن عدم تذكرها أنهـا رأتني قبل ذلك. لكني تحت ضغط عميق من نزوة غامضـة في عمق روحي رجوتها أن تحاول التذكر، وطلبت منهـا أن أحادثها على انفراد.

النظرة التي رمقتني بهـا جعلتنـي أشـعر بالبلاهـة، والارتباك، لكنني لمحت في عينيها طيفًا شاحبا من الفضـول تمسكت به وأنا أحاول استدعاء كل الخيوط التي تتـيح لـي امتداد الحوار مبديا إصرارا عنيدا لكي أحادثها على انفـراد، حتى رضخت أخيرا تحت ضغط إلحاحي. ابتسمت وهي تهز رأسها كأنها لا تعرف ماذا تفعل، ثم طلبت من رفيقتيهـا أن يسبقاها. ولم ينته لقائي بها إلا بعد أن تلقيـت منهـا دعـوة

لحضور حفل رأس السنة الذي كان من المقـرر أن يقيمـه النادي بعد أسبوع.

* * * *

في الشقة الواسعة التي تطل النوافذ الرئيسية فيها علـى النيل وقفت محاطًا بالصخب، أتأمل الوجوه بفضول وشغف. بعضها كان مألوفًا، كما تسير الأمور عادة في مدينة صغيرة مثل المنصورة، حيث رؤية أي شخص في اليوم الواحد عدة مرات أمر طبيعي. من بين هذه الوجوه لاحظت ملامح بعض الفتيات اللاتي كنت أشاهدهن قريبا من المدرسـة اليونـاني، جميلات جمالاً مراهقًا. أما هنـا، مـع الماكيـاج المفـرط والملابس العارية، والعطور التي يفوح أريجها في المكـان، فقد بدون نماذج للجمال الأنثوي الإغريقي في أوج تألقه.

كنت المصري الوحيد في المكان على ما يبدو، أحـاول أن أفهم شيئًا مما يرطنون به حولي، وبجواري وقفت " ماريا " ترتدي فستانا أحمر قصيرا يظهـر سـاقيها المـدملجتين، وذراعيها وكتفيها اللتين كشفتا بجمـال تكوينهمـا وبيـاض بشرتها الحليبية بذخ أنوثتها. ومع الماكياج الخفيـف الـذي زينت به وجهها بإتقان بدت فاتنة.

تركت نفسي لها باستسلام كامل. فتحت لروحـي كـل الأبواب المغلقة، وهربت من كل الوساوس التي تطـاردني، ومن هواجسي وروحي المضطربة. حـررت نفسـي مـن أصحاب الذقون، ومن طيف كريتسين، وشبح عماد. أخمدت ـ ببرود وإصرار ـ وهج ضميري الذي كان ينفث غضـبه راجما روحي بعذاب التأنيب، وتجرعت معها البيرة " ستلا " التي كانت زجاجاتها الخضراء التقليدية تحيط بنا فـي كـل مكان، وهو ما ساعدني في إطلاق جسدي لأشاركها رقصاتها المجنونة.

وبعدها شاركت أكثر الشباب الموجـودين مرحـا فـي مسابقات تجرع النبيذ، بكل أصنافه المتاحة علـى المنضـدة الطويلة في أقصى الركن الأيمن المجـاور لبـاب النـادي: "البطالسة " و " عمر الخيام " و " الروزية ". وبعد لحظـات كنت أضحك بهيستيريا. أشعر بتضرج وجهي من إحساسـي بالتهاب وجهي بالحرارة، ولا أسمع شيئًا من كـل الصـخب والضحكات الهيستيرية من حولي، بفعل الوشيش الذي تحول تدريجيا إلى طنين مكتوم عزلني في بلـورة سـحرية مـن

الصمت. وعبر زجاجها الشفاف لا أرى سوى وجـه ماريـا الملائكي يحيط بي من كل اتجاه.

■ ٤ ■

ماريا قلبت حياتي رأسا على عقب. أصـبحت مركـزا لوجودي يبدأ عندها كل شيء، وينتهي أيضا. حتى إحساسي بالزمن، لم يعد سوى متواليات من العد التنازلي أنتظر فيهـا أيام الآحاد التي مثلت لقاءاتنا الأسبوعية.

أنتظرها قريبا من " بيت المحافظ "، في الطريق العلوي المواجه للمدرسة اليوناني في طريقنا إلى " نادي التجـديف " على الضفة الأخرى في طلخا، أو " كازينو النيل"، وأحيانًـا نذهب إلى " راندوبلو " الذي يقع في الشارع الصغير الـذي يفصل بين شارع البحر و " ميدان الطميهي "، وقبـل ذلـك وبعده، كنا نسير ببطء على امتداد الكورنيش حتى " الهـابي لاند " لنعبر إلى طلخا مرورا على كوبري القطـار، نختـار أهدأ شوارع طلخا المظللة بالأشـجار لنواصـل حواراتنـا الهامسة.

حكيت لها عن كل شيء: نادية التي كنت أعرف قدرتها على الإحساس بكل ما يمر في روحي من شعور وخبـرات نفسية، وعن عماد وموته الدرامي الذي ترك ثقبا أسود فـي

روحي ولا يرجى شفاؤه، وعن كريستين حبيبـة الطفولـة، والراهبة الحالية التي لا أعرف عنها شيئًا.

أما هي فقد أخبرتني عن حضورها إلـى الإسـكندرية بصحبة والديها وهي طفلة، حيث عاشت فترة طويلة قبل أن يقرر الأب والأم الانفصال. وتمسكت أمها برفقتهـا لتعـيش معها في الإسكندرية بعد أن اختار الأب العودة إلـى أثينـا. وبعد تدهور أحوال أمها قررت أن تحضرها إلى المنصـورة على اعتبار أن المدرسة اليونانية كانت تجد دعما من بعض أثرياء الجالية اليونانية. أخبرتني عن حياتها الرتيبـة داخـل المدرسة، وسهرات أيام الآحاد بالنادي اليوناني بعـد زيـارة الكنيسة، وعن صديقتيها تاليا وريتا، وعن ذهابها لقضاء فترة الصيف مع أمها بالإسكندرية، باستثناء المرات التي يـدعوها فيها والدها لقضاء الصيف معه في اليونان.

* * *

ـ كاليبيرا ماريا.

وترد التحية ضاحكة، وأنتشي بضحكتها فأقول لها:

ـ إيسي أوريا.. ماريا..

فتغرق في الضحك على نطقي البدائي لليونانية.

في الشارع الضيق الذي يفصل بين " عمارة التليفزيون " وحديقة الحيوان، همست لي: رامي.. ثيتو سـاس شـيري ديكوس ما كارديا (فهمت منها لاحقا أنها تعني ضـع يـدك على صدري).. لم أفهم شيئًا، لكني شعرت بها وأنا أقتـرب منها مترددا، وأكاد أسمع خفقات قلبي المتلاحقة. قبلتها قبلـة محمومة بينما نجلس على بلاطة رخامية.

مرفوعة على كتلتي حجر راسختين. شـعرت بحركـة هينة بين ساقي فور أن فاجأني ملمـس فخـذيها بنعومتهمـا المفرطة بعد أن تسللت يداي من تحت الجيب القصير الـذي ترتديه، توقفنا للحظات ونحن ننظر حولنا في قلق. أمسـكت بيدها لأسعادها على النهوض باتجاه ظهر العمارة خلفنا. غبنا عن الوعي بأي شيء عدا احتفالية القبلات اللاهثة المحملـة بشبق الغربة. وينطلق من أعماقي مـارد الشـهوة مسـتفزا باستسلامها الكامل، تاركة لي شفتيها.. رقبتها ووجنتيها فيضا من النعومة. صرخت صرخة مكتومة عندما حاولت إمسـاك نهديها ـ اللذين هالني تحررهما من أي قيد ـ مـن تحـت البلوزة البيضاء.

باغتنا ارتطام شيش النافذة التي تعلـو رأسـينا بجـدار العمارة فجأة. وأخمد الرعب – في لحظة – تأجج الشـهوة التي كادت تبلغ ذروتها، وانطلقنا نـركض باتجـاه مزلقـان القطار الذي يبدأ بانتهاء حدود سور حديقة الحيوان. لكننا لـم نتوقف عن الركض إلا عندما أصبحنا في مواجهـة بوابـة مدرسة الملك الصالح نتلفت خلفنا مذعورين، رغـم أننـا لا نرى أحدا يلاحقنا، قبل أن يتحول ذعرنا لضحكات مكتومـة سرعان ما انقلبت إلى حالة هيستيرية يغلفها الضـحك بينمـا تطلقها لذة اكتشاف الرغبات المكبوتة التي وأدهـا الرعـب والإحساس بأن لذتنا تعرضت لتلصـص عيـون لا نعـرف أصحابها.

ـ ٥ ـ

ماريا.. غيرت حياتي بشكل كامل. لم تعد "المنصـورة" مكانا خانقا محدودا. ولم أعد أشعر بالملل من تكرار الجلوس في " كازينو النيل "، ولا من النظر إلى ملامح وجهها الجميلة غارقا في تأمل عينيها الرماديتين الشهوانيتين، والحالمتين في نفس الوقت، في أثناء جلوسنا إلى المنضدة الأثيرة، أقصـى الركن البعيد عن السلم، بالطابق الثاني في " راندوبلو "، نأكل " الكاساتا " ونثرثر بدون توقف.

من " راندوبلو " ننطلق يمينا إلى " ميـدان الطميهـي " نبحث عن " عم مصطفى " نائما في واحدة مـن عربـات " الحنطور " التي تتراص خلف بعضها في صف طويل، يتعلق كل منها بواحد من الخيول التي تتقدم العربات، يأكل كل من كيس التبن الموضوع على الأرض.

نجلس متجاورين على الأريكة الجلدية السـوداء التـي يأخذ ظهرها شكلا زخرفيا تكونه وحدات مضـلعة متماثلـة مستوحاة من التصميمات الكلاسـيكية الأوروبيـة القديمـة. وأمامنا يجلس عم مصطفى متأهبا، يمسك الكرباج بيده اليمنى وباليسرى طرفي اللجام. تأكل البهجة قلبينا، وتتغلف مشاعرنا

بالإحساس بالخصوصية، بينما نهتز على إيقاع السير الواهن المرتبط بطرقات حدوات أقدام " فيروز ": الفرس الأبـيض المبرقش ببقع رمادية تتناثر بعشوائية على جانبي ظهره.

نمر على مقهى " أندريا " بواجهته الخشـبية والنوافـذ الضخمة المؤطرة بنفس لون الخشب البني الداكن. نقطـع " شارع بور سعيد " في نقطة التقائه مـع " كـوبري طلخـا " لنستكمل السير في امتداد شارع البحر. ننظر إلـى الجهـة اليسرى حتى تشاهد المبنى الأبـيض اللـون المكـون مـن طابقين. وتشير ماريا إلى الطاولة التي نحب الجلوس إليهـا في كازينو النيل.

إلى اليمين سنلتقط أفيشات الأفـلام المعروضـة علـى واجهات السينمات تباعا: سينما " النصر "، " عدن ". ثم تقوم ماريا لتجلس على الأريكة الصغيرة التـي تواجهنـا لكـي تستطيع أن تلمح أفيش " سينما ريكس " التي تقع في شـارع جانبي يصل بين شارع البحر وشارع السكة القديمة. وأخيرا، وبعد تقاطع شارع البحر مع " شارع حسين بـك " سـنتأمل أفيش " سينما أوبرا ".

كنا قد شاهدنا سويا عدة أفلام في لقاءات الأحد. اشترينا تذكرتين من أحد الشباب الخارج من بين جموع المـراهقين المحتشدة أمام سينما أوبرا، بضعف الثمن، لكي نشاهد فـيم " الصعود إلى الهاوية ". كانت مشاهد الإغراء السحاقية التـي أدتها " مديحة كامل " في الفيلم تتداول بين الشـباب بشـغف شديد، وتجعل من الممر الضيق المؤدي إلى مبنـى السـينما الـدائري، فـي كـل فتـرات حجـز التـذاكر للحفـلات المختلفة،جحيما من الزحام والصخب اسـتمر طـوال أيـام عرض الفيلم.

شاهدنا أفلام " بد سبنسر " التي لم أكن أحبها كثيرا بينما كانت ماريا مغرمة بها. شاهدنا عرض الفيلم " كينج كونج " في سينما النصر، كما شاهدنا الفيلم الذي أصبح أيقونتنا لاحقًا " حمى ليلة السبت " ورحنا بعدها نستمع إلى أغاني ال Bee Gees بولع هستيري والتي كانت بديلا رائعـا لإيقاعـات " البوني إم " الإفريقية الحية لرومانسية " ديمـيس روسـوز " المفرطة.

نمر على " الهابي لاند " ونتجاوزه بنفس الإيقاع المنتظم على دقات تصنعها طرقات الخطوة المنتظمة التي يسير بها "

فيروز " حتى نصل إلى مبنى المحافظة. نهبط من الحنطـور ونودع عم مصطفى بمحبة فيقرع بإحدى قدميه رنات متتابعة من الجرس النحاسي الذي يمثل نفير الحنطور، ثـم يحيينـا بحماس وهو يطرقع الكرباج عدة مرات بجوار أذن فيـروز يستحثه على الركض.

نعبر إلى الجهة الأخرى حتى نصل سور " تفتيش الري " فنسير الهوينى بمحاذاته، نتأمل أشجار التوت الوارفة التـي تمتد بامتداد السور الذي ينتهي بالبوابة الأنيقة لبيت المحافظ، بمدخله الواسع الأنيق المبلط ببلاطـات أسـمنتية حمـراء، وبمبناه الأوروبي الطراز الذي تعلوه طبقـة مـن القرميـد الأحمر مستوحاة من شكل الخيمة. ثم نعبر الشارع الصـغير المواجه لنهبط إلى الشارع السفلي الذي تقع المدرسة اليونانية في أوله، ولا أودعها إلا بعد أن أسمع الصرير الحاد للبـاب الحديدي الضخم الذي يتوسط عمودين أسطوانيين يعلوهمـا قوس حاد الزوايا، مثلث الشكل، منقـوش عليـه بـالحروف اليونانية اسم المدرسة.

لم تفعل شيئًا خارقًا، لكن وجودها خلق لحيـاتي معنـى آخر، وأصبحت أرى العالم من منظور مختلف، أوسع كثيرا

من منظور الإسلاميين، الضيق، للحيـاة. أغلقـت أبـواب العذاب، والانكسار الرهيب الذي سببه موت عماد، ثم غياب كريستين الذي ارتبط في وعيي بغياب الموت.

ـ٦ـ

قبل أسابيع قليلة من نهاية العام الدراسي الـذي كانـت تستعد فيه لعامها الأخير بالمرحلة الثانوية تقرر نقلهـا إلـى فرع المدرسة بالإسكندرية. كانت أعداد الطلبة في المدرسـة تقل تدريجيا، مع انتقال أغلب أفراد الجاليـة اليونانيـة مـن المنصورة. وهو ما كان يضطر إدارة المدرسة لنقل الطلبـة الذين لا يكفي عـددهم لاسـتقرار تـدريس المنـاهج إلـى الإسكندرية. ولم يكن هناك مفر من إغلاق المدرسة بشـكل نهائي في غضون عدة سنوات، لتتحول إلى مدرسة تجريبية للغات، ولا يبقى أثر للجالية اليونانية سوى الشقة التي تـأوي النادي اليوناني ومحل الخمور الذي يتوسط أحـد الشـوارع الضيقة في " ميت حدر " تنطلق ميت حضر " الـذي كـان يكتب اسمه بالحروف العربية الحمراء " باولو كريا كيدس " قبل أن يغلق حانوته منذ عدة سنوات مع إشاعة تداولها بعض المتدينين أنه أعلن إسلامه واعتزل بيع الخمور!

الأيام التي كنت ألتقي فيها ماريا بالإسكندرية، تعلقت في ذاكرتي، وبدت بمرور الوقت كأنها حالة خيالية انتزعت من واقع حياتي، نموذجا لحياتي كما أفضل أن تكون في بلاـورة

زجاجية تطير بي عبر الزمن والواقع، لكنها في ذلك الزمن، كانت تجمعني بماريا.

جولات المشي التي كنا نقطعها بلا كلل، وبلا إحساس بالزمن، أو التعب تبدأ من " ميامي، ولا تنتهي إلا أمام قلعة قايتباي. نقف متضامين أمام مياه البحر، نحدق في الأفق البعيد، نتخيل حياتنا على الشاطئ الآخر في اليونان كما كانت ماريا تتمنى. همست لي بأنها لا تعرف معنى آخر لحضورها إلى مصر خلال كل هذه السنوات وتنقلها بين الإسكندرية والمنصورة إلا لتتعرف إلي. وأؤيدها عن يقين، وأعلن لها ارتياحي لابتعادها عن المدرسة اليونانية في المنصورة الذي يعني ابتعادها عن " ألكسندر " زميلها الذي يغازلها باستمرار.

كنت أشعر بلهيب الغيرة منذ رأيته للمرة الأولى في حفل رأس السنة. كان يحاول أن يتودد إليها بشكل مبالغ فيه كأنه ينقل لي رسالة خاصة، عاملته ببرود محاولا إخفاء توتري. بينما هو يتأملني في هدوء. ويحاول بين آن وآخر أن يجد الفرصة ليلتصق بها أو ليرقص معها. قالت لي إنه يجلس إلى جوارها في الفصل، وإنه يحتفظ بمجلات عارية

يريها إياها أثناء الحصص من خلف ظهر المدرسين. وفهمت أنه يحاول إغواءها بشتى الطرق. حكت لي يوما أنها وجدته بجوار فراشها يوما يجلس على كرسي، ليراقبها وهي نائمة، ولم تكن ريتا وتاليا في الغرفة. وأنها لم تعرف قـط كيـف تسلل على غرفتها في سكنى البنات.

لم تخبرني أنه كان يشاهدها وهي عارية. لكني فهمـت ذلك عندما قالت لي في حوار عابر إنها لا تسـتطيع النـوم سوى بسروالها الداخلي صيفا أو شتاء (توب ليس)، وهـو ما أحرق دمي لعدة ليال حتى أكدت لي مرة تلو الأخرى، أنه لا يمثل لها أي شيء. وأعقبت ذلك بحكايات مطولـة عـن تفاهاته وملاحقاته المستمرة لفتيات المدرسة وبيـنهن ريتـا وتاليا.

أمام البحر كانت تغني بصوتها الجميل أغنيات يونانيـة لا أفهم منها شيئًا. أخبرتني أنها مغرمة بمطربة يونانية هي " هاريس ألكسو ". وكانت تغني المقطع الذي أحبه بصوتها: " أتان بينسي ميا جينيكا ".. ثم التفتت لي وهي ترسم ابتسامتها الجميلة وتغمز لي بإحدى عينيها قائلة: الأغنية دي معناها.. لما الست تحب تشرب! وفي الشقة التي تعيش فيها مع أمهـا

قريبا من محطة الرمل حيث عرفتني إلى أمها.. معلنة اسمها بفخر " هي دي: ستيفانا ديمتريـوس.. " كانـت سـيدة ذات ملامح تكشف عن بقايا جمال، كان - على ما يبدو - فاتنـا في شبابها بينما تحول شعرها الأشقر إلى اللون الرمادي.

وبعد أن تثرثر معنا قليلاً تتركنا وتذهب إلـى غرفتهـا وعلى الفور تسرع ماريا إلى جهاز البيك آب العتيق لتسمعني اسطوانات " خاريس أليسكو ": صباح الخير أيتهـا الشـمس (كاليمارار إليا) وبعض أغنياتها الأحدث آنذاك أولا س تي ميزون (كل شيء يذكرني بك)، وفيفجو (إني راحلـة)، وتا تراجوديا تـيس هيتسـبينس ميـراس (أغـاني الليلـة الماضية).

أسمعتني أيضا مقطوعة موسيقية لمانوليس كالوميريس الذي أخبرتني أنه أحد الموسيقيين الكلاسيك. كما اسـتمعت، دون أن أحتفظ بها في ذاكرتي، على أغان متفرقة لـ ديميترا جالاني وأندونيس كالويانيس ويانيس باريوس.

في الإسكندرية كان جمالها يبدو متألقا، وجهها ينطلـق بالحيوية التي افتقدت الكثير منها في المنصورة. كانت تبـدو لي آنذاك وكأنها تعيش في موطنها الذي ولدت فيه، بالإضافة

إلى أنها كانت تعرف حواري وأزقة الإسكندرية، بما يفوق ما تعرفه أي من بنات إسكندرية.

قالت لي إنها تريد أن تصحبني إلى مكان يعج بـأجواء اليونان، طلبت مني أن أرتدي زيا أنيقا، بينما ارتـدت هـي فستانا أسود طويلاً، بلا أكمام، مطرزا بالترتر على المسـافة التي تغطي صدرها.

طلبت من التاكسي أن يذهب إلى " شارع صفية زغلول " وعندما نزلنا من التاكسي توقفنا أمام واجهة خشبية كبيـرة تتخللها قطع زجاجية مستطيلة متماثلة، وفي أقصى طـرف الواجهة وجدنا بابا خشبيا صغيرا فولجنـاه بعـد أن تأملـت الحروف اللاتينيـة التـي تعلـوه Santa Lucia (سـانتا لوتشيا).

بدا لي مكانا عتيقا يحتفظ بعراقته، ليس له رونق فخـم بقدر ما يفيض بالأصالة. تناولنا عشاء مميزا على منضـدة تقع في الركن الذي تبدأ بعده حدود الملهى الليلـي، بجـوار نافذة ضخمة تعلو الأرض بنحو نصف متـر وتمتـد حتـى السقف. خلف النافذة الخشبية الكبيرة من الزان مغطاة بزجاج مبرقش تتدلى عليها ستائر " ماس " بتدرجات لونها بيج فاتح.

عندما دخلنا البار كان المكان ممتلئا عن آخره. وإلـى اليمين كان جهاز " أورج " موسيقى يجلس إليه شاب يوناني وبجواره عازف " أوكورديون " عجوز، وأمامهم وقف شاب وفتاة شقراوان يصدحان بأغان يونانية بدت لي ذائعة من شدة حماس الجمهور لها. لم نجد مكانا سوى مقعدين أمام البـار فاتجهنا نحوهما.

لا زلت أحتفظ بتفاصيل المكان، رغم أني لم أذهب إليه بعد ذلك سوى مرة واحدة: البار من خشب الـزان المطلـي باللون الأسود، أما المقاعد الدائرية المتراصة أمامه فقواعدها من الجلد ذي اللون البرتقالي الذي أعطاه الزمن درجة داكنة، بينما أشاع الخشب، الذي يكسو الجدران، الدفء في المكان.

عرفنا اسم البار مان من كثرة تردد اسمه من الحضور: نيكولا. أخبرتني ماريا أن اسمه الكامل " نيكولا كريونيتاكس " وأنه أحد أشهر " بار مان " في الإسكندرية لأنـه عـايش أحداثا تمتد إلى زمن افتتاح " سانتا لوتشيا " لأول مرة بعـد الحرب العالمية الثانية. طلبنا منه بيرة قبل النبيذ.

وشاركنا الحضور رقصا كان الجميع يؤدونـه بإتقـان. أخبرتني ماريا أن الرقصة اسمها " الفرسكو ". وفي منتصف

الليل انضممنا إلى منضدة ضمت صديقة قديمة لماريا ومعها صديقها وأختها.

ولكزتني ماريا بذراعها عندما لاحظت أنني أتأمل جمال الفتاة بشغف وقالت لي ضاحكة: " أليسيا " كانت ملكة جمال أثينا السنة اللي فاتت. وقد بدت لي فاتنة فعلاً بملامحها الشرقية.. شعر أسود طويل، عينان سوداوان واسعتان وعميقتان وجه بيضاوي تتوسطه شفتان شهوانيتان مثيرتان. بينما فضح فستانها الأزرق مكشوف الصدر حجم ثدييها الكبيرين. أما صديقها فقد بدا أيضا وسيما بملامح شرقية. وكانت ماريا تبادلهما الحديث باليونانية، بينما التزمت أنا والفتاة الثالثة " اكيليا " الصمت. باستثناء تعقيبي على ما تترجمه ماريا من حديث أليسيا بين آن وآخر.

في تلك الليلة، لم تعد ماريا إلى البيت، فقد أخبرت أمها أنها ستبيت مع أليسيا وأختها. لكنها عادت معي إلى الفندق الذي يحتل الطابقين العلويين في إحدى العمارات العتيقة المطلة على كورنيش محطة الرمل، وكانت قد استأجرت لها غرفة تسللت منها ليلاً لتغرقني في موجات من الفرح والوجل والارتباك تظللها سموات النشوة التي لم أختبرها

بمثل هذا التألق بعد ذلك أبدا. دخلت حجرتي لتخرجني مـن الجنة. فقد أدركت في ذلك اليوم أنني لن أكون نبيا كما كنت أتوهم في طفولتي بعد رؤياي التي كنت أقبض عليهـا بقـوة اليقين حتى تسللت من بين يدي مع انزلاق ورقـة التـوت: كيلوت أبيض ناصع، مربوط إلى أسفل خصـرها بخيطـين رفيعين.

أخرجتني من حل الجنة إلى جنة أخرى تفيض بخمـر شفتيها ورؤى جسدها العذب عاريا. أطوف بحدائقه متبـتلا، أقبل الشامات المتناثرة على امتداده تزيد من جماله. وأرتشف معنى اللذة للمرة الأولى مودعا عمرا من الكبـت الجنسـي، وصراع الهلاوس الجنسية مع أشباح الممارسات البيوريتانية اللاشهوانية. وطقوس توفير المني!

لم يفاجئني اكتشاف أنها ليست عذراء، لكن ما داهمنـي فعلاً هو تجسد روح كريستين قبل لحظات من بلوغ الذروة، حتى إنني تعمدت ألا ألفظ بأي شيء خشية أن يغافلني الاسم منطلقا من لا وعيي فجأة.

ولم أكن شاهدت جسـد كريسـتين، لكنـي، ولوهلـة، تصورت أن الجسد المتناسق البديع أمامي، والثديين الكاعبين

بحلمتيهما الورديتين الصغيرتين هو أشبه ما يمكـن بجسـد كريستين، ولم يطرد هذا الهاجس من رأسي سوى الإلحـاح المفاجئ لشبح ألكسندر بينما تندلع نيران الشكوك في أعماقي بسؤال من تلك الأسئلة التي لا يمكن معرفة إجابتهـا.. هـل فقدت عذريتها مع ألكسندر؟ ولا أعرف لماذا أطلق السـؤال في جسدي انفجارا مدويا للإثارة والشهوانية التي تسللت إلى ممارساتي الهادئة لتنقلها إلى مستوى آخر بذلت فيه طـاقتي القصوى، كأنني أحاول إزالة أثار السابقين من ذاكرتها.. أيا كانوا!!

- ٧ -

الصباح التالى كان جميلا بشكل غير اعتيادي. استيقظت قبلها بقليل، وكان غبش الضوء المتسلل مـن النافـذة عبـر المسافة الضيقة التي تفصل بين قطعتي الستارة تعلـن عـن ساعة مبكرة من النهار. أولتني ظهرها العاري بينما أسـتمع إلى أنفاسها المنتظمة. تسلل عبق شعرها - بلونه الذي يجمع درجتين من درجات اللون البني - كأنه عطر أنثوي كثيـف اختلط بحفنة من تراب رطبته المياه.!

استيقظت حواسي تدريجيا. اقتربت منها لأستعيد خبـرة الإحساس بالحرية التي يولدها تلاقي الجسـدين العـاريين. واحتضنتها مبتهجا. تنفست بعمق، وأتاني صوتها هامسا:

- كاليميرا..

فهتفت لها وأنا أربت على ردفيها:

- كاليميرا أسبرو.

فأتاني صوتها ضاحكًا:

- صباح الفل يا حبيبي.

أدركت مدى تحول العلاقة بينـا، أو ارتقائهـا، كأننـا اكتشفنا في أنفسنا - فجأة - ما لم نكن نعرفه. مثل الارتياح

لصديق متحفظ واكتشاف روحه المرحة المفاجئة، في سهرة ماجنة.

لم تكن هذه هي أولى خبراتنا الحسية المشتركة، فقد أتيحت لنا بعض الفرص اللاهثة التي حاولنا اقتناصها: في السينما، أو أسفل سلم إحدى العمارات التي كنا نعرف أنها غير مأهولة بالسكان في المنصورة، وفي البيت أيضا، ولمرتين متعاقبتين سافر خلالهما أبي مصطحبا أمي ونادية إلى الإسكندرية. ففي كل هذه المرات كانت الأمور تسير دائما بشكل لاهث ومرتبك وغير متوافق. ولم أستطع، حتى، أن أعرف إذا ما كانت عذراء أم لا.

أما في تلك الليلة فقد بدت ناضجة، واثقة من نفسها، وهي تتعامل مع جسدي بخبرة. تمرر يديها المدربتين الرقيقتين بحنو على امتداد جسدي وتتوقف أحيانًا لتستبدل يديها بشفتيها في طوافها على جسدي، كما كانت تستحثني بعد ذلك لكي نتبادل مواقعنا، وتشجعني على اكتشاف جسدها بحب. قالت إن كل ممارسة بهذا الشكل تعطينا الفرصة لاكتشاف أسرار الجسد التي لا تنتهي. قالت لي إن كل حركة من حركات أصابعي على جسدها تشبه بيتًا شعريا في

قصيدة. وكلما كانت خبرة الأنامل، كانت القصـيدة أجمـل. تذكرت هذه الخبرة بحنين وأنا أقرأ إحدى قصـائد سـعدي يوسف: (من أين أمسك بك/ لا النهـد يمـلأ راحتـي/ ولا الزند/ وفخذاك، فخذا الغزالة، هل تعرفان غير الجري/ حين أطوق خصرك/ ترتسم أضلاع على أناملي/ لكنك حين تفعل الحب ترفرفين/ تطيرين وتهبطين ـ ممسكة جيدا بالعود..).

وبعد سنوات طويلة قرأت لأوكتافيو باث بعد حصـوله على " نوبل " نفس المعنى بشكل أكثر عمقا: " العلاقة بـين الإيرونيكا والشعر

هي من مستوى يمكن معه القول بدون أي تعسف بـأن الأولى شعر جسدي وأن الثاني إيروتيكية لفظية. الإيروسـية هي الجنس محولا إلى استعارة، والمخيلة هي الوسيط الـذي يحرك الفعل الإيروتيكي والشعري معا، هي القوة التي تحول الجنس إلى طقس وشعيرة، واللغة إلـى إيقـاع واسـتعارة. الصورة الشعرية هي عناق لوقائع متعارضة والقافيـة هـي جماع أصوات. والشعر يضفي الإيروتيكية على اللغة والعالم معا، لأنه هو نفسه ضرب من الإيروسية في طريقة اشتغاله ".

وأدركت أنها كانت تعطيني أول وأهم خبراتي الحميـة بحب بالغ، ما زلت أدين بفضلها وأختبره في كل فعل للحب مارسته مع أي امرأة غيرها.

الآن عندما أستدعي ذكرياتي معها أتأمل صورتي وأنـا أحتضن عريها وأرى - من موقعي الآن عبر السـنوات - بشرتها الحليبية الأخاذة وشعرها البني الذي كانت قد جعدتـه في تلك الليلة فأعطاها حسا غجريا مثيرا. أرى عينيها اللتين تأخذان شكل لوزتين مرسومتين بعناية ومحـددتين بالكحـل الذي بقيت آثاره ماثلة.. تحدق بي عشقا فـأهيم تائهـا فـي أعماق روحها.

لكن في ذلك الزمن كان عناقي لها يجعلني أتخلى عـن إدراكي لها كحضور.

" عندما تعانق تلك الصورة تكف عن مشاهدتها وتفقـد هي كينونتها كصورة. وتبدأ حالة من تفتيت الجسد المشتهي: نرى العينين فقط تحدقان فينا، نرى عنقا يضاء بنور مصباح ثم يعود بسرعة إلى حلكة الليل. نرى بهاء الفخذ. نرى الظل نازلا من السرة إلى الفرج. العناق الجسدي هو أوج الجسـد وفقدانه في نفس الوقت ".

* * *

أسترني ماريا، وجعلت لكل ما أستقبله في حياتي معنى مختلفا، حتى الجلوس في الأماكن المعتادة اكتسب، معها، مذاقا جديدا، الإفطار في " أمفتريون " مثلا وأنا أتأمل وجهها الطفولي وشعرها البني المجعد، بينما يظهر البحر من خلفها عبر النافذة.. مذاق الكابتشينو في مطاحن البن البرازيلي، والقهوة المسائية في المقهى الخارجي لفندق " وندسور ". كل ما وقعت عليه عيناي في صحبتها امتلك طابعا فريدا لم يكن من الممكن استعادته لاحقا مع أي أحد، ربما، حتى مع كريستين.

* * *

أما الوجع الذي شق صدري وأفقدني القدرة على النطق في اليوم الأخير قبل رحيلها النهائي والمفاجئ إلى أثينا فما زال ماثلا. بكاؤها بين يدي أمام الشاطئ، والذي تحول فجأة إلى نشيج ملتاع لطفلة تبكي شيئًا تشعر أنها ستفقده إلى الأبد، ما زال يتردد في عمق أعماقي. ودموعها على وجنتيها

أيقونة لا تفارق خيالي، ولم تفارقه للحظة. أتذكرها مستعيدا الإحساس بالبرد القارس الذي أحاط بنا متواطئا.

وبعد شهور قليلة من رحيل ماريا اكتشفت أنه ليس سوى لعبة محسوبة من ألعاب الزمن والمصادفة، وهي الألعاب التي شغلتني طويلاً ولا زالت.

- ٨ -

ألعاب الزمن والصدفة شكلت تفاصيل حياتي كلها، وهي التي أعانتني على الهروب من طيف كريستين بظهور ماريا التي أنقذتني من هلاوس وهواجس عديدة. وهي نفس الألعاب التي جعلتني أستبدل بطيف كريستين طيـف ماريـا، لكـن المفاجأة في هذه المرة كانت أكبر.

كنت قد بدأت التعايش بشكل نسبي مع فكرة الحياة بدون ماريا. وتجرأت على المرور أمام الأماكن التي كانت تمثـل ألما لا يطاق بفعل التهاب الذكريات المحفورة فـي أعمـاق الروح كلما مررت أمـام أي منهـا: المدرسـة اليونـاني.. راندوبلو.. كازينو النيل وغيرها، وبفضل الاكتئـاب وعـدم الرغبة في الخروج كنت أقضي أغلب الوقـت جالسـا فـي البيت، أقرأ ما تيسر، إذا ما كان ذهني صـافيا. أو أجلـس مذهولا أمام شاشة التليفزيون، بلا أي إرادة حقيقية لمشـاهدة شيء بعينه. أما أغلب الوقت فأقضيه في غرفتي. أستمع إلى الموسيقى بلا كلل.. علها تستطيع أن تشفي روحي.

وفي غرفتي تلقيت خبر عودتها مذهولا حين وجدت نادية تفتح الباب وهي ترسم ابتسامة دهشة بلهاء لتعلن لي خبر وجود كريستين في الصالون!

مدت لي يدها وهي ترسم ابتسامة ودودة، وتحدق في دون أن تنطق بحرف. وأحسست أن ملامح وجهها الجميلة قد صارت أكثر نضجا، أمسكت يدها وأنا أتعمد أن أضغط عليها قليلاً، كأنني أحاول أن أنقل لها ما لا أستطيع التعبير عنه قولا. أحتضن كفها الدافئ البض مستعيدا عمرا من المشاعر الذي خلت أنه قد ولى من حياتي إلى الأبد. اقتربت منها لأقبلها، فتلقت قبلتي بوداعة، ولم تنطق بشيء.

وبعدما أحضرت نادية أقداح الشاي، وبدأت أستوعب وجودها مرة أخرى في الحياة بدأت خيوط الكلام تجمع شتاتها، لكنني بمرور الوقت اكتشفت أنني الذي أخذت أثرثر بلا انقطاع، إذ إنها كانت شاردة، أغلب الوقت. أحسست أن روحها أقل توهجا مما عرفته عنها.

* * *

بدأنا نستعيد علاقتنا تدريجيا، وكأننا نحاول تجاوز آثار موت عماد، وإيجاد صياغة جديدة لعلاقة ثنائية لا يوجد فيها

عماد سوى كطيف شاحب لذكريات أيام لن نستطيع اسـتعادة رونقها مرة أخرى. وأن نحاول إحياء المساحات التي ماتـت في قلبينا أيضا. لم يكن من السهل أن أستعيد نفس المشـاعر بعد مروري بتجربة ماريا التي فرضـت وجودهـا كطيـف أقارنه بكل ما تفعله كريستين كما كنت على يقين من أنها لا يمكن أن تكون نفس الإنسانة قبل أن تخوض تجربة الرهبنة، حكيت لها عن الدراسة بكلية الحقوق، وعن بعـض أسـاتذة الكلية وخاصة د. الشافعي بشير الـذي غالبـا مـا تتحـول محاضراته في القانون الدولي إلى بدايات مظاهرة سرعان ما تخرج من المدرج إلى حرم الجامعة أسبوعيا.

وأخبرتني أنها فقدت سنة دراسية وستضـطر لإعـادة الثانوية العامة.

حدثتها باقتضاب شديد عن تجربتي مع الجماعة، ولـم أكن متحمسا للحديث في الموضوع. وحكت لـي باختصـار شديد الطقوس الأولى التي بدأتها في الدير.

وعندما سألتها عن السبب الذي قررت من أجله تـرك الدير والتخلي عن حياتها كراهبة تقلصت ملامـح وجههـا

لوهلة، ثم بدأت تحاول أن تدخل إلى الموضوع وهي مترددة.
ثم صمتت مرة أخرى لفترة قبل أن تقل لي في حسم:

- أحسن ما نتكلمش في موضوع الدين ده تاني.

- يعني إيه؟

- يعني أنا مش هاتكلم عن أي حاجة ليها علاقة بالدين تاني.. ويا ريت ما تحاولش تخللينا نتكلم.

- طيب أنا كمان مش ها حكيلك أنا سبت الجماعة ليه!

ابتسمت ولم تعلق بأي شيء.

وبعد فترة صمت أخيرة قلت لها:

- طيب مش هنروح نولع شمع في مار جرجس حتى؟

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تهـز رأسـها سـلبا. وأدركت أن كثيرا من الطقوس المشتركة التي كنا نمارسـها معا لن يكون بإمكاننا أن نكررها مرة أخرى. وتذكرت المرة الأخيرة التي ذهبنا فيها إلى " مار جرجس " فـي " شـارع بورسعيد " حيث أوقدنا الشموع من أجل عماد للمرة الأخيرة.

سنفقد هذه التجارب المشتركة الجميلة، كمـا أننـا لـن نشاهد طيور الحمام التي تحلق وتملأ المكان برفيفها وسـط

الضوء الساطع كلما سمعنا عن ظهور العذرا في كنيسة مـن الكنائس.. سنصاب بالعمى من الآن فصاعدا!.

- ٩ -

" من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسدا واحدا. إذ ليسا بعد اثنـين، بـل جسـد واحدا. إذ ليسا بعد اثنين. بل جسد واحد. فالذي جمعه ا لا يفرقه إنسان.. ".

لكن الأمر احتاج منا بعـض الوقـت، لكـي نسـتعيد المساحات التي أظلمت في أعماق كل منا بفعل ابتعادنا فـي الزمن. وحتى ما كان من الطقوس التي اعتـدنا قبـل ذلـك مألوفا بدا لنا غريبا في تلك المرحلة، كأننا نمارسـه للمـرة الأولى: أوقات القراءة والمذاكرة في غرفتي تحـت رقابـة نادية، أو عند كريستين فـي البيـت تحـت رقابـة طـنط جورجيت، وحتى في كل الأماكن التي كنـا قـد اعتـدنا أن نذهب إليها قبل ذلك. كنا نعرف أن سبب ذلك هـو وجـود عماد الدائم معنا في تلك الأيام. حتى " مولد الشيخ حسنين "، كان في حضوره هذه المرة شيئًا مختلفا رغم أن المشهد كله كان مألوفا: نهبط من التاكسي بجوار مبنى مديريـة الأمـن

على شارع البحر، ثم نخترق زحام شارع العباسي الذي يمنع فيه سير العربات في يوم الليلة الكبيرة للمولد، وكلما اقتربنـا من " ميدان الشيخ حسنين " زاد الزحـام ورائحـة العطـن والعرق، بينما تظهر في الحواري الضيقة، على يمين ويسار الشارع، الخيام التي أقامها الزوار القـادمون مـن القـرى والنجوع المحيطة بالمنصورة، أو من بعـض مـدن مصـر البعيدة، كما أغلب الموالد التي تجذب زوار أولياء ا أينمـا كانوا.

وعلى محيط الميدان تجاورت سرادقات صغيرة تضـم حلقات الذكر وجلسات تعاطي الحشيش، وعلى ناصية "شارع السلخانة " تتمركز عربة مغطاة بالصفيح كأنها غرفة تعلـو أربعة إطارات ولها باب يصعد الأطفال إليها بسـلم خشـبي صغير، إذ إنها تستخدم كمسرح صـغير لألعـاب السـحر والأراجوز، تغلفها من الخارج رسـوم بدائيـة لهـا ألـوان صارخة. بينما يتوزع المئات من الشباب والكهول والسيدات في أرجاء الساحة حول الميدان أمام ألعاب النيشان المنتشرة في كل مكان أو بعض الألعاب البدائية مثل ضـرب علـب الصفيح الاسطوانية الصغيرة المتراصة في كومـة منسـقة

بشكل معين بكرة صغيرة. أو بعض ألعاب القوة، بدفع الأثقال على قضيب حديد ينتهي بالبمب. ويعلو الصخب والضـجيج أرجاء الميدان.

وبين موجات البشر التي تحيط بنا من كل اتجاه حاولنا أن نصل إلى جامع الشيخ حسنين الذي يقع على يمين الميدان فور انتهاء شارع العباسي. ووصلنا إلى بهو المسجد أخيـرا فيما يشبه المعجزة بعد أن غطت كريستين وجهها بشال كانت قد أحضرته احتياطيا. وطفنا حول المقام الذي يقع إلى يسار مدخل الجامع، وهي تتقدمني بينما ألتصق بها وأنـا أمسـك بكتفيها خوفا من أن نفقـد بعضـنا فـي الزحـام، وخشـية المتربصين من هواة الالتصاق بمؤخرات الفتيات في الموالد. وخرجنا ونحن نشعر بالاختناق بسبب الإحسـاس بـالحرارة ورائحة العرق النفاذة الخانقة التـي تفـوح مـن الأجسـاد اللانهائية المحيطة بنا، ومن العطن الذي يغلف جو المكان.

أما آخر الطقوس المشتركة القديمة الذي مارسناه قبل أن نقرر أن نفتح صفحة جديدة نمارس فيها طقوسا مختلفة فكان زيارة أخيرة إلى " مار جـرجس " تحـت إلحـاح " طـنط

جورجيت " التي أبدت استياءها من توقف كريسـتين عـن الذهاب إلى الكنيسة.

ولا أعرف ما الذي حدث، لكن شيئًا مـا، لـه طبيعـة مختلفة، وحسية، بدأ بيننا منذ دخولنا من باب الكنيسة. كـان لملمس أناملها طابع حسي حميم،. وكنت أراقب يديها بشغف منذ رأيتها أخيرا، أتأمل أناملها النحيفة الرقيقة البضة التـي تنتهي بأظافر أنيقة مقببة قليلاً ومعتنى بها. ولعل هذا ما جعل أيدينا تشتبك طوال وجودنا هناك، وأنا أصيخ السمع لتأوهات روحها المختلطة بالترانيم، بينما النظرات الحانية المطلة من الأيقونات تبدو لي إشارة لا راد لها.

في الوكر بدأنا طقوسنا المشتركة الجديدة. أعطاني مهند ـ زميلي الأردني الذي استأجر شقة فاخرة فـي طلخـا ـ نسخة من مفتاح شقته، وهو ما أتاح لنا أن نذهب إليها يوميا بالنهار ومساء الخميس.

.. ولأنت جواري ضاجعة/ وأنـا بجـوارك/ مرتفـق/ وحديثك يغزله مرح/ والوجه.. حديث متسق/ ترخين جفونا/ أغرقها سحر/ فطفا فيها الغرق/ وشبابك حـن جبلـي/ أرز وغدير ينبثق/ ونبيذ ذهبي وحدي/ مصطبح منـه ومغتبـق/

وتغوص بقلبي نشوته/ تدفعني فيك.. فنلتصق/ وأمـد يـدين معربدتين/ فثوبك في كفي../ مزق/ وذراعك يلتف/ ونهر من أقصى الغابة يندفق/ وأضمك/ شفة في شفة/ فيغيب الكـون وينطبق/ وتموت النار فنرقبها/ بجفـون حـار بهـا الأرق/ خجلى!/ وشفاهك ذائبة/ وثمارك نشوى تندلق/ ونعود نثرثر/ كبحيرات هادئة/ غطاها الورق/ ويمر الوقت فـلا نـدري/ ويقيم محافله الشفق/ وتدق الساعة معلنة. فيهب بنـا صـحو قلق/ ويحين وداع وقتي/ وأراه كحلم ينسحق/ يرتد الصـمت لموضعه/ ويعود إلى الأذن الحلق/ ونمد الأيـدي/ راغمـة/ نتشاكى العتب/ وتنزلق!/ وأحس بشيء في صدري/ شـيء كالفرحة يحترق! [1].

أقرأ لها من شعر أمل دنقل الذي أغرمنا به، مدهوشـين من قدرته على وصف حالتنا شعرا!

تلك كانت أيامنا الجميلة.. نقرأ ونثرثر، ونستعيد حـديثا بدأناه في طوافنا اليومي بممرات الجامعة الممتلئة بالأشجار. الأحاديث الحميمة تبدأ بعد أن تتجاوز كلية الزراعة، نطوف

([1]) من قصيدة شيء يحترق من ديوان مقتل القمر لأمل دنقل.

حولها حتى نصل إلى كلية العلوم مبتعدين عن الزحام الـذي يبلغ ذروته أمام كليتي الحقوق والتجارة.

لكن الحسية التي بدأت تغاف إحساسي بها كلما تكلمت، أو نظرت إلى بعينيها الزرقاوين تجعلني أحاول اخـتلاق أي فرصة للاحتكاك بها أو لمس جسدها إمساك يديها، وغالبا ما ينتهي الأمر بقرار الذهاب فورا إلى الوكر.

.. عارية ـ إلا من الحب ـ تـروح وتجـيء/ يـأتي غناؤها بصوتها الدافئ/ وهي ترش الماء في الحمـام/ أو.. جالسة على الأريكة الأثيرة/ وهي تسوي شعرها/ أو.. وهي عند النار/ تعد فيها قهوة الإفطار أو تمنح الرونق للأشـياء/ في لمستها الخبيرة.. [٢]

جعلنا من هذه الشقة، ومن مساحة الغرفة الصغيرة التي يتوسطها فراش وتحيط به الكتب، مسرحا نختبر فيها الحرية كما نشتهي أن تكون. خبراتي الجنسية التي تلقيتها من ماريا

---

(٢) من قصيدة فعل من قصة حب من ديوان تعليق على ما حدث لأمل دنقل.

لقنتها إياها بحب كامل. أقبل جسدها بصبر عاشق حتى أنامل القدمين. وندخل معا إلى عالم حسي لا يخلو من صوفية.

كان في علاقتنا، بكل عوالمها الروحية والمادية، ما يجعلنا نشعر بأننا نفعل شيئًا خطيرا وحقيقيا. ويجعلها تأخذ من كتاب " قصة حب " فقرات تحفظها عن ظهر قلب، وترددها بشغف، وتملأ بها هوامش كتب الدراسة.

ـ ١٠ ـ

لا أعرف ما الذي حدث لي فجأة.. أعرف أنني غيور، لكن الأمر أخذ شكلاً مرضيا بعد أن بدأت بيننا طقوس الحمية، وأصبحت ضحكاتها لأي صديق من أصدقائنا في الجامعة كأنها طعنات حقيقية في قلبي. صرت أتابع ما تفعله في الأوقات التي لا نكون فيها معا بشكل صارم. وانتقلت أفكاري إليها بالتدريج، وبدأت هي أيضا تتوتر.

لكن الانفجار حدث بعد عودتها من زيارة قامت بها لابنة خالتها كاترين في القاهرة. حكت لي أنها خرجت بصحبة كاترين لتيسر لقاءها مع صديقها، ففوجئت بأنه حضر بصحبة صديق من أصدقائه، وأنها اضطرت لأن تتحدث معه طول الوقت بسبب رغبة كاترين في الانفراد بصديقها.

جن جنوني. وضغطت على أعصابي حتى أكبح شياطين الغضب التي كانت تتراقص حولي وتقربني من الجنون. ولم أرد عليها طوال الطريق من أمام كلية الزراعة حيث كنا نجلس، وحتى بوابة الجامعة الرئيسية. ولم أرد عليها سلامها أيضا بعد أن ركبت التاكسي بمفردها.

أغلقت الهاتف في وجهها مرتين متعاقبتين بمجـرد أن سمعت صوتها. وفي المرة الثالثة لم تعطني الفرصة إذ إنهـا بدأت المكالمة بموعظة عن الشعارات التي أطلقها عن الثقـة المتبادلة والمشاعر العظيمة وتخلف الرجل الشرقي.

أمسكت بالهاتف ورفعته من أعلى المنضـدة الصـغيرة المخصصة له وألقيت به بعنف باتجاه الحائط. ثم خرجت من البيت لا ألوي على شيء.

ولثلاثة شهور كاملة، لم يكلم أحدنا الآخر كلمة واحـدة، كنت أتصبر باجترار ذكرياتي مع ماريا، وأنـا أردد لنفسـي أنني لا يمكن أن أرتبط إلا بفتاة أجنبية في المستقبل. فقد كنت أثق في ماريا ثقة عمياء رغم أننـي أعـرف أنهـا ليسـت عذراء.. أما كريستين، فقد شعرت آنذاك أنهـا مثـل كـل الفتيات المصريات اللائي يجعلن من " اللوع " قانونـا فـي علاقاتهن.

ولم ينه الخلاف إلا المحاولات الدءوبة التي بذلتها نادية للإصلاح بيننا. وعند تلقيت منها رسالة تقول لي بأنني أخذت ما أريد وبالتإلى لم أعد في حاجة إليها، شـعرت بالإهانـة، لأنني لم أكن أريد أن أعود إليها بدعوى الشفقة. كنت أعرف

في أعماقي أنني متيم بها، وأنني لـن أسـتطيع أن أعـيش بدونها، لكنني لم أستطع التخلص من إرث التراث الشـرقي الذي يجعل من هلاوس الخيانة أشباحا ماثلـة للرجـل فـي علاقته بالمرأة التي تفقد من أجله بكارتها. لكنها كانت خبرة ضرورية ضرورة لعلاقتنا التي أثبتت بعد ذلك قدرتها علـى تجاوز الكثير من المحن.

وبحلول الخريف الذي أعلن بدء عام الدراسة الأخير لي في كلية الحقوق، وعامها الثاني بكلية الآداب، كانت قد تخلت عن خجلها من السير أمامي عارية طوال فترة وجودنا معـا في الوكر. تعد القهوة وهي لا ترتدي شيئًا سوى " الكيلوت " الكحلي الذي كنت أفضله على غيره، أتأمل جسدها الرشـيق البض، وظهرها الناعم المقسوم بالأخدود الرقيق على سلسلة الظهر إلى لوحتين مخمليتين بلون بشرتها الناعمـة بدرجـة هيئة من لون القمح.

أقبل رقبتها بينما تلفح وجهي خصـلات مـن شـعرها الذهبي الذي عقصته في ضـفيرة ثبتتهـا بـأعلى رأسـها. أحتضنها لتلتقي كفاي فوق سرتها أسفل بطنها الهضيم تـدفع

ردفيها دفعا هينا لاتجاهي وهي تسألني بنبرة لا تخلو مما يشبه العتاب:

- والقهوة؟!

أسبقها إلى الغرفة، لأضع في جهاز الكاسيت شريطا مما نفضله: " فرانك سيناترا " في الأغاب You are my Distney (أنت قدري) أو Undeer my skin (تحت جلدي)، وأحيانًا نسمع منير: " شبابيك " هو ألبومي المفضل آنذاك، وهي تحب الأغنية، لكنها كانت مغرمة بعبد الحليم حافظ الذي لم أكن أحبه كثيرا. يوم عيد ميلاده يتحول إلى جحيم لأنها تستيقظ في ذلك اليوم في الصباح الباكر وتبدأ في تسجيل كل أغانيه التي تذاع في الراديو أو التليفزيون رغم الاسطوانات المتراكمة لديها لكل ما غناه حيا أو مسجلاً. وكثيرا ما كنا نجعل من فريق Abba حلا وسطا نموذجيا لأننا نحبه بنفس القدر: Dancing Queen أو Take a chance on me أو does your mother Know وطبعا Chequitita.

تضع القهوة أمامي، وتلمس بإبهامهـا " وش " القهـوة بلونه البني القاتم، وملمسه الثخين، وتمد يدها لأتذوق القهـوة من طرف يدها. نتخيل بعدها سيناريو لحكاية نمـارس بهـا الجنس، وننفذه حرفيا، بنشوة بالغة.

وهكذا أحسسنا أن الممرات الضيقة التي بـدت لا فيهـا الحياة خلال السنوات الأخيرة صارت أكثرا اتساعا. أصبحت رحبة ما يكفي لآفاق علاقتنا هذه التي كانت تظللهـا سـتائر الرومانسية بالتتابع.

القسم الثالث

فصول من سيرة الخوف

أمي هي التي استطاعت أن تشعر بوجودي. هكذا كانت دائما، تحلم بالأشياء قبل وقوعها. ينقبض قلبها قبل أن تقـع الأحداث الجسام، وكثيرا ما كانت تقرر السفر إلـى أسـيوط لتزور عائلة من عائلات أهلها، وتصر على رؤية شـخص بعينه، وغالبا ما كنا نسمع خبر موته بعد أيام!

قالت لهم، وهي تبكي، إنني عدت من السـفر! وأنهـت مكالمتها الهاتفية مع جدي فؤاد وخإلى عماد ـ الذي سـميت على اسمه ـ وخالتي تريزا بجملة رددتها بثقة شديدة: ما هو نايم جوه في أودته.. تعالوا شوفوه..

وهم جميعا وجدوا فيما تقول دليلا نهائيا قاطعـا علـى صفة الجنون التي وسموها بها منذ رحيلي. كانت آخر مـن شاهدته آنذاك، وأول من رأيته بعد عودتي. لكـن العينـين الخضراوين النضرتين اللامعتين قد ذبلتا تماما، حتى لونهما، بدا لي رماديا، أما الشعر البني الناعم المسترسل، فـلا أرى منه الآن سوى خصلات شديدة البياض تتسـلل مـن خلـف وشاحها الأبيض.

هذه المرة لن يكون بإمكانها أن تراني، لكنها تشعر بي، متكأة على بصيرتها، تنادي على وتبكي بالـدموع، فتخلـق

فيمن يحيطون بها مزيجا مشاعريا غامضا مكونا من الرثـاء والشفقة المغلفة بالدهشة. تستمد دهشتهم أصولها من قناعتهم بأنها بكت على - بعد رحيلي - حتى جفت دموعها، بينمـا هم يشاهدون التجاعيد التي حفرتها في جبينها ووجهها أزاميل الزمن، وقد فاضت بدموعها.

استطاعت أمي أن تشعر بوجودي!

صرخت بحرقة، وهي تقسم لهم بالمسيح الحي على أن روحي ترف حولها، وسبتهم - على غير ما أعرفه عنها - بأقبح الشتائم، دينا وملة، عندما ألحـوا عليهـا فـي زيـارة الدكتور " شاكر عارف " بدعوى تلف أعصابها.

لو أن هناك عدلاً في هذا العـالم لصـعقتني الآن قـوة معجزة تكشف لأمي حدة بصيرتها، وهـذر العميـان الـذي وصفوها بالجنون، ولأتيح لي أن أحتضنها مسـتكينًا، لعلـى أحقق ما عدت من أجله مرة أخرى إلى هذا الزمن: أن أتغلب على هذا الخوف الذي ينهش روحي.

الخوف الذي سيطر على وجـودي الأول بـلا سـبب واضح، الخوف من المجهول، ومن سـخط السـماء، ومـن الناس، والشياطين الذين يتربصون بي معمي عن رؤيتهم.

كان الخوف المرضي قد تسلل إلى روحي وتمكن منها، لهذا لم تجد معي كل الأدوية التي تسابق الأطباء في وصفها، بل لعلها كانت السموم التي عجلت برحيلي بعد أن تخثر قلبي بفعلها.

لم تكن لدي طاقة على مواجهة ذلك الخوف، ذهبت إلى الكنيسة بانتظام، وحفظت الصلوات كلهـا، ورددتهـا مـع القساوسة بإخلاص تام وفي القداس كان صوتي يتهدج مـع الشعب متوسلاً ومستغيثًا: نسبحك.. نباركك. نشكرك يا رب

أذهب إلى القداس على أمل التطهر وأنا أردد مـا قالـه القس في واحدة من عظاته مستشهدا بالعهد الجديد:" **تعـالوا إلى يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكـم.. فقـط تعالوا.** أستمع إلى الموعظة بكل جوارحي عازم النية علـى التطهر، مغلقًا عقلي على الأسئلة حتى لا يتسرب الشـيطان في إحداها، منتظرا، بعد نهاية الصـلوات أن يـأتي أبونـا ليرشني، مع الشعب، بالماء المقدس وحتى أسمع الكلمة التي أتمنى أن يكون فيها خلاصي من عذابي: "**انصرفوا بسلام.. سلام الرب معكم.** "

وقرأت من الكتاب المقدس مؤمنا على قـول الـرب: " **طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات، طـوبى للحزانى، لأنهم يتعزون، طـوبى للودعـاء لأنهـم يرثـون الأرض، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشـبعون، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون.. "**

وكنت هؤلاء جميعا، فلم أزدد إلا خوفًا.. حالة غامضة لا أستطيع معها أن أغمض عيني خوفًـا مـن أن يـداهمني الموت. لا أستطيع أن أغلق باب الغرفة، أو التواجد فـي أي مكان مغلق، تنقض المخاوف على فورا وأتوهم السقف فـي طريقة للانهيار على رأسي. فتتسارع دقات قلبـي، ويعلـو صوت تنفسي، وتتقاص بطني. أحاول استنشاق الهواء مدافعا الإحساس المباغت بأن روحي تسحب مني، ويتقطر العـرق باردا وغزيرا على جبيني.

حتى النوم أصبح مستحيلاً بسبب الهاجس بأنني إذا نمت فلن أستيقظ، ولهذا كنت أضيء الغرفة وأرفع صوت الراديو على أي شيء، أستمع إلى ثرثرات ووشيش لا يعني لا شيئًا التماسا للونس الذي أحاول أن أتغلب به على مخاوفي. وبعد أن يصاب جسدي بالوهن ومن شدة التـوتر يخطفنـي نـوم

متقطع، حتى يتسلل ضوء النهار من خصاص الشباك الـذي يواجه السرير أمامي مصحوبا بزقزقة العصافير فـأنتفض. أفتحه على اتساعه، وأستنشق الهواء بعمق شاكرا الرب علـى أنني ما زلت أحيا.

كنت أتمنى أن أخبر رامي عن مخاوفي هذه، لكنـه فـي نفس الوقت كان أبعد من يمكن أن أمتلك القدرة على الحديث معه في شيء كهذا. فقد كانت صداقتنا تقوم علـى النديـة، وكانت الشفقة واحدة من المشاعر التي يحتقرها رامي، ويأخذ منها موقفًا حادا، ويبدو رد فعله عنيفًا إلى حـد القسـوة إذا فاجأه حدث ما، يجعل من الشفقة رد الفعل الطبيعي له.

في الفترة التي وضعت فيها قدمي في جبيرة الجبس بعد أن تعرض مفصل القدم للكسر كان يصر على ألا يقـوم أي من أفراد الشلة بمساعدتي، بل وأحيانًا، وعلى سبيل الدعابـة السخيفة، كان يتعمد الارتطام بقدمي المكسورة.

وحتى علاقتنا بكريستين تسللت إليها هذه الندية، لكنهـا حسمت المسألة مبكرا بميلها إلى رامي وإعلانها أنها تحبـه تجنبا للحساسيات التي قد تسببها أية التباسات بسبب علاقتـه بها، وبسبب علاقتنا المركبة أنا وهو..

الوحيدة التي كنت أنسى حالتي المرضـية هـذه أثنـاء وجودها هي " طنط تريزا ".. خالتي.. جمال نموذجي، كمـا هو معروف عن فتيات وسيدات المنصورة: شعر بني فاتح، ناعم، تتركه منسدلاً على كتفيها في أغلب الأحيان، وعينـان يمتزج فيهما الأخضر بلون العسل. وجه مسـتدير ملامحـه دقيقة ومنمقة. لكنها تقريبا فقدت اتزانها بعـد مـوت حسـن النبراوي الذي توفي في حادث مفاجئ. كنا جميعا نعرف أنه حب حياتها الذي احترقت بلهيبه طول حياتهـا. لكنهمـا لـم يستطيع الزواج بسبب اختلاف الدين.

تزوجت من عمي سامي ولم تنجب منه أطفالاً، وظلـت تشكو منه طول الوقت، أما حسن النبراوي فكان قـد اتخـذ قراره بألا يتزوج بأي امرأة غيرها، ومـات بالفعـل وهـو عازب.. وهذا ما أحرق قلبها كمدا. فقدت روحهـا المرحـة وظلت منقطعة عن الكلام لعدة أسابيع عزفت فيها أن تـرى أي مخلوق أغلقت باب غرفتها ورفضت أن تفتحه لأي أحد. عمي سامي كان يعرف جيدا مزاجها السوداوي. ولم يكـرر محاولته في إخراجها مما تعانيه خوفًا من تكرارها لفاصـل الردح الذي شنفت به أذنيه، وتجنبـا لمقارنـة علنيـة بـين

المرحوم وبينه، وحاول أن يحافظ على ما تبقى من ماء وجهه بتجاهل الأمر تماما كأنه لا يعنيه.

كانت تحكي لي، بشغف، قصة علاقتها بحسن النبراوي، وكيف أنها أعجبت به بسبب غموضه وهدوئه الشديد في شبابه، بالإضافة إلى وسامته وهي تقرب صورته إلى خيالى قائلة: كان شبه " عمر الشريف " بس أشقر ووشه أحمر. ثم ترسم ابتسامتها الجميلة وهي تعود بذاكرتها إلى زمن آخر وتقول: كنت باهرب من المدرسة يوم كل أسبوع عشان نروح السينما مع بعض.

.. تعرف يا واد يا عماد، لو رجع بيا الزمن تاني أتجوزه واللي يحصل يحصل. دانا جتني بيلبسها عفريت لو شفته لغاية دلوقت. ما هو كان عنده استعداد نتجوز، وكل واحد يبقى على دينه.. وأنا كمان كنت موافقة إن الأولاد يبقوا مسلمين.. بس منهم بقى خيلاني.. جوزوني المنيل على عينه سامي..

وعندما اشتد على المرض أسرعت هي إلى الكنيسة، وعادت لي بلفافة صغيرة لمحت على أحد جوانبها رسما للصليب بخط اليد، وضعته أسفل الوسادة التي أنام عليها

وهي تقول: خليه تحت المخدة على طول، أبونـا عملهولـك مخصوص. ما تخافش يا دود، والمسيح الحي حتخف وتبقى عال. شد حيلك عشان تيجي معايا القداس الأسبوع الجاي.

لكن روحي كانت قد استسلمت لرحلتها على زمن آخر. الآن أستطيع أن أسأل نفسي عن أسباب هذا الخوف، هل لأن طفولتي كانت مرضا كلها؟ ربما. فبسبب هذا المرض – من الحمى الروماتيزمية إلى الالتهاب الرئوي إلى ضربات القلب غير المنتظمة – حرصت أمي على أن أكون بجوارها طوال الوقت. وحتى سن العاشرة كانت هناك قائمـة طويلـة مـن الممنوعات: لا لعب، ولا كرة قدم في الشارع، ولا أصحاب، ولا شيء على الإطلاق، سوى زيارات الكنيسة.

ولم ينقذني سوى إلحاح " طنط جورجيت " على أمي أن تسمح لي باصطحاب كريستين ابنتها في بعض المشاوير التي قد تمتد أحيانًا إلى " شارع بنك مصر " و " السكة الجديـدة " أو " ميت حضر "، ومن هنـا بـدأت علاقتـي بالشـارع. وبالخوف أيضا.

اكتشفت أنني قلق وخائف على طول الخط، أخـاف أن تتعرض كريستين لأذى لا أستطيع دفعه عنها، أو أن يوجـه

لي أحد المسلمين إهانة لا أستطيع ردها. بعضهم - وبينهم جلال وعلى قبل أن نصبح أصدقاء - كانوا يرددون هتافًا غامضا كلما مررت من أمامهم: أبو عضمة زرقاء. ولم أكن أفهم معناه، وعندما سألت أمي سبتهم وأهاليهم الذين لم يحسنوا تربيتهم وأوصتني بألا ألتفت إلى تفاهاتهم، وأن أكثر من الصلاة.

ولم يكن أمامي إلا أن أقرأ من الإنجيل لأثبت قلبي: "إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبضغني قبلكم. لو كنت من العالم لكان العالم يحسب خاصته (..) لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم أنهم أبغضوني بلا سبب".

صافرات الرهبة!

أتأمل هذه الذكريات فتبدو لي هشة وبسـيطة، هشاشـة مخاوفي التي عدت - فقط - من أجل القضاء عليها. رحلتي في الزمن، جعلتني، بلا شك، أكثر قوة وقدرة علـى رؤيـة مخاوفي في حجمها الحقيقي. ولعلني لو عدت لذلك الـزمن القديم لكررت الأمر بنفس تفاصيله، وبكل تلك المخاوف التي عشتها. ولهذا لم يكن بإمكاني أن أكمل سفري عبر الزمن إلا بعد العودة لتصفية حسابي مع الخوف.

تقدير مبالغ فيه لألم افتراضي غير محتمـل، ربمـا لا يكون لوجوده حقيقة سوى في خيال الواهم. وكلمـا كانـت القدرة على احتمال هذا الألم المفتـرض أقـل، زادت قـوة سيطرة هذا الإحساس. وهكذا كانت حياتي تسير في دائـرة الرهبة والوجل ثم الهلع، تضغط علي، فتضيق الدائرة التـي تحكم من خناق صفة الجبن حولي والتي لم أعـرف طريقًـا للهروب منها سوى بالموت!

وفي وجودي الآن وهنا، أولى محاولاتي الجادة لمواجهة جبني ومخاوفي، ولكن هل أستطيع أن أغير صورتي لـدي كل من عرفوا أن موتي لم يكن سوى هروب جبان. جبن من مواجهة الحياة، بكل آلامها الافتراضية، وكل الأذى المتـوهم

من الآخرين، ومن شرور نفسي الأمارة بالسوء، من الخطية، ومن قسوة أبي الصارمة، ومن الأصحاب الأشـرار، ومـن الاعتراف بمشاعري لمن أحببت، ومن الجهر بـديني بـين المسلمين.. خوف قاتل ومهين؟.

رامي كان يكره الإحساس بالخوف، ويواجهه بأن يرمي نفسه برعونة في قلب كل ما قد يثير مخاوفه.

أخبرته يوما عن الرهبة التي أشعر بها عندما أستمع إلى صافرات القطارات المارة فوق كوبري طلخا، والتـي كنـا نسمعها في توريل بشكل واضح، خاصة في أعماق الليل.

في صباح اليوم التالى استدرجني إلى مزلقـان القطـار القديم الذي كان يدور أعلى التل الترابي المحيط بمدرسـة " الملك الكامل ". انتظر حتى سمع هدير القطـار قادمـا مـن صوب مصنع اللبن، ثم جذبني بقوة صاعدا على التل باتجاه القضبان. حاولت التملص منه دون جدوى. وشـعرت بـألم مفاجئ في قلبي وأنا أرى القطار المتهالـك فـي مواجهتنـا يصدر نفيره المتقطع بانتظام. وفوجئت برامي يدفعني علـى وجهي بين القضبان ويلقي بنفسه فوقي، وهو ما أنقذنا مـن الارتطام بهيكل القطار. مرت تلك اللحظات وكأنها ساعات،

أصاب أذني طنين صاعق وأنا أستمع إلى هـدير عجـلات القطار الحديدية على يميننا ويسارنا وكأنهـا دوي صـراخ الشعب قبل قيام المسيح!

النداهة.. كان اسمها كفيلاً بتوليد مـزيج مـن السـحر والإثارة والخوف العميق لدي، وربما لدينا جميعـا، خاصـة وأن هذا الانطباعات على الذاكرة مدى الحياة. تمامـا مثـل فكرة الدين، حيث تكون الطفولة، بخيالاتها الممتدة، والرعب من المجهول البعيد الغامض بيئة خصـبة مثاليـة لنموهـا، ونقشها في جدران الذاكرة بلا أسئلة ولا علامات استفهام.

النداهة.. تلك المخلوقة القادمة من أعماق البحر، ومـن قلب الأسطورة، والتي بفعل ترهيب أمهاتنا لنا بها، تنتقل إلى سطح مياه النيل أمامنا حقيقة واقعة. رايتها بشعرها الـذهبي المتجعد المنسدل على كتفيها وحتى أسـفل خصـرها الـذي تنتهي عنده حدود تكوينها البشري ليبدأ نصفها الـذي يأخـذ هيئة الجزء السفلي لسمكة عملاقة. كانت تنظـر باتجـاهي، وهي ترسم ابتسامتها الساحرة، وتشع من عينيها نظرة جذابة لا تخلو من براءة. ولكنها قبل أن تعود إلى أعمـاق الميـاه ستنادي على اسمي مرارا، ثم تستبدل نظرة البراءة بـأخرى

مخيفة تلتمع فيها العينان المحدقتان، بينما ينخلع قلبي وأبـدأ في صعود التل الحجـري المـؤدي إلـى الطريـق علـى الكورنيش، من حيث كنا نقف أسفل كوبري القطار لنصـطاد السمك. ولم أكن وحدي، فقد رآها جلال أيضا وتسابق معـي في الركض هربا من غواية النداهة!

ومن خلفنا انطلق سباب رامي متلاحقًا، وعندما وصـلنا إلى سور الكورنيش الحديدي التفتنا إليـه، فوجـدناه يخلـع قميصه والحذاء، قبل أن يلقي بنفسه إلى مياه النيل عائما حتى الهيكل الحديدي المضلع الذي تستقر فوقه عمدان الكـوبري الضخمة، ثم استكمل السباحة عائدا حتى وصل إلى الشـاطئ لاهثا وخرج ليلقي بنفسه على الأرض وهـو ينظـر إلينـا باستخفاف.

هكذا كان رامي دائما.. يختار الاتجاه الذي لا يتوقعـه أحد، عكس الطرق التي نسلكها نحن. حتى علاقته بكريستين ثم زواجه منها - وهو ما لم أشهده في حياتي الأولى - لـم تكن سوى إحدى نتائج طريقته في التفكير بأن يحـوم حـول الخطر أو يلقي بنفسه فيه.. أيا كانت النتائج!

لكن أحدا لم يتفوق على رامي سوى حودة الـذي كنـا ننظر إليه جميعا باعتباره فارسا نبيلاً، مبهورين باحترافه لكل ما يقوم به. ففي مباريات الكرة الشراب التي كانت تجـري عصر كل يوم في ميدان فريد المصري، كان هـو الهـداف الذي يستطيع بمهارة نادرة أن يلصق الكرة تحت قدميه، كأنه ساحر، يستعرض مهاراته في ترقيص فريق كامل قبل إحراز الهدف. وهو صائد العصافير، والحمام أحيانًا، بالنبال، وليس بالبنادق " الرش " كما كنا نفعل. كانت ضربة النبلـة تسـقط الطير، وقد انفصلت رأسه عن جسده من شدتها. لم يخطـئ ضربته ولو رمية واحدة!

وبصلابة آسرة، وثقة بالنفس، كان قادرا على التصـدي لبلطجية " كفر البدماص "، يحاول أولا أن يرهبهم بطريقتـه الحادة والعنيفة في الكلام معتمدا على الكرايزما الخاصة التي يتمتع بها. وكثيرا ما نجحت هذه الطريقة في إنهاء المشـادة قبل أن تتحول إلى معركة.

أما إذا أحس أن طريقته لم تحقق له ما يريـد، فيختـار أضخم شخص في مجموعة الكفر، ثم يباغته بلكمـة قويـة يضع فيها كل تركيزه، فإذا لم يقع، يسرع في استكمال اللكمة

الأولى بمجموعة أخرى من اللكمات المتلاحقة، وهو يلف حول خصمه برشاقة حتى لا يتمكن منه، ثم يوجه له، أخيرا، ضربة توقعه أرضا، وغالبا ما تكون بقدمه الموجهة إلى خصيتي الخصم المشتت بفعل حركة حودة المستمرة وفي اتجاهات متناقضة.

وحتى بلطجية توريل، أو أي من سكان الحي، كانت قادرا على مواجهتهم وحده. ومنها تلك المرة التي خرجت فيها من نافذة البيت المطلة على الميدان على صوت صرخات لمجموعة من الشباب أمام مسجد فريد المصري، وعندما دققت نظري وجدت حودة يمسك بكرباج سوداني طويل وينهال به ضربا على كل من يطوله منهم حتى تفرقوا أمامه راكضين.

كان حودة قد لمحهم وهم يتحرشون ببعض فتيات الحـي، وهم سكارى أو مساطيل. فأسرع إلى بيته أمام تفتـيش الـري، وعاد بعد دقائق وهو يحمل الكرباج. وكنا جميعا نعرف أنه لا بد وقد أخفى مطواة القرن غزال في جيبه كالعـادة. توجـه إلـيهم صامتًا. لم ينطق بحرف. توجه إلى أكثر الواقفين صخبا ثم هوى بالكرباج على وجهه، ثم تراجع خطوتين إلى الخلـف قبـل أن ينهال على الواقفين جميعا بضربات متلاحقة سـريعة بالكربـاج مستغلاً الارتباك الذي تسبب بمباغتته لهم.

ولأسبوع كامل ظل يأتي إلى نفس المكان لـيلاً ويجلـس بمفرده موجها رسالة تحد لهم، وتأكيدا على قدرته علـى تنفيـذ تهديده الذي وجهه لهم صارخًا وهم يركضون أمامه:.. لو شفت أي خول منكم هنا تاني.. هاعلقه على باب الجامع.

رامي كان يعتبره مثله الأعلى، حتى عندما عرفنا أنه قطع شرايينه ذات مرة في محاولة لإرهاب والده بعد مشـادة نشـبت بينهما. كان رامي يؤكد لنا بحماس أنه لـن يمـوت.. ده بـس بيلاعب الموت.. من بعيد لبعيد!

أما أنا فقد خشيت من كل شيء.. حتى تلقفني الموت ضحية طيعة.. هينة.

رؤى الطيف الأخير !

المشكلة التي تواجهني الآن هي تحديد النقطة الزمنيـة التي أتحرك فيها.. فعندما أتذكر ماضي الذي كان قبل موتي، فهذا هو الماضي. أما حياتي فيما بعد ذلـك خـلال السـفر الزمني إلى ما بعد المستقبل فيمكنني أيضا أن أتذكرها، كأنها تنتمي إلى الماضي، رغم أنهـا ـ زمنيـا ـ تنتمـي إلـى المستقبل، حتى بالنسبة للحظة الراهنة التي أبث منهـا هـذه الأفكار.

كنت أعرف أن السفر عبر الزمن خروج عـن حـدود المكان، فليس فارق المواقيت سوى حدود الجغرافيا. لكننـي الآن أواجه مأزقًا يمثله وجودي الراهن هنا، رغم أنني أنتمي لزمن مختلف!

كأن الزمن ليس سوى تكثف الواقع إلى سحابة الضباب المعلقة في سقف الذاكرة، وما يتبخر منها يصبح عدما خارج الزمن. ولهذا ظل "يسوع" في خيإلى حيا لا يتجـاوز عمـره منتصف الثلاثينيات على أقصى تقدير، موجود دائمـا، فـي الكنيسة، وخارجها، في الأيقونات والتماثيل، مصـلوبا فـي أعماقي رغم أنني عندما بدأت رحلتي خارج حـدود الـزمن كان عمره قد تجاوز ١٩٨١ عاما كاملة! وما أعرفه الآن هو

الماضي والمستقبل معا. المستقبل الذي كشـف لـي أوهـام الحياة. وهشاشة أفكاري كلها عن صورة الإنسان الـذي لـم يتحقق وجوده في الزمن الماضي بأي شكل، بينما يعطي ذلك الكائن لنفسه أكثر مما يستحقه بدعوى أنه الأذكى في حين أنه يسعى بذكائه هذا لتدمير نفسـه بشـكل كامـل. أمـا مـن المستقبل.. من الزمن المقبل فيبدو كائنًـا مثيـرا للسـخرية بضيق أفقه وبلادته.

أعرف الآن عن يقين كامل أن الجنس البشري يحتـاج إلى تحسين خصائصه العقلية والبدنيـة حتـى يسـتطيع أن يتعامل مع العالم المحيط به وليواجه تحـديات السـفر فـي الزمن. ويكون قادرا عندئذ أن يرى أشخاصا مثلي، لن تكون له الآن القدرة على رؤيتي بسبب محدودية هذه القدرة، ولـو أني وصفت لأي ممن يعيشون في هذا الزمن معنى التطـور العقلي الموجود في المستقبل سأكون مثل شخص من نفـس الزمن يشرح لآخر من عهد المسيح ظـروف المدنيـة فـي الألفية الثالثة. ولكن يمكن فقط، لأصحاب البصـيرة، مثقـل أمي، أن يشعروا بي، وهؤلاء سيوصفون بالجنون. أما الذين سيصفونها بالجنون، فهم كغيرهم من فاقدي القدرة على تخيل

الانفجار الكوني مثلاً. أو ولوج روح شاردة إلى ثقب من الثقوب السوداء للوصول إلى نفق فضائي يصل في نهاية الأمر إلى الزمن المنشود.

والآن لا يعنيني كل هذا، المهم هو وصولي في الزمن الآخر إلى النضج الذي فرض على عودتي إلى هذه النقطة الزمنية الحرجة والمربكة مرة أخرى، فربما ظهرت لواحد من الذين أحبهم مثل طيف يراود أحلامهم، فأؤكد لهم أنني تغلبت على مخاوفي الدنيوية الصغيرة التافهة، وأنني الآن أقوى بما يكفي لأواجه ضعفي وخوفي، معترفًا به. أدين نفسي قبل أن أفكر في إدانة زمن زرع في أعماقي هذا الخوف الذي تمكن من عمق روحي حتى قتلني!

ولست أهتم بتوضيح مسار عودتي في تلك الأنفاق الفضائية التي أصبحت خبيرا بها، فلا يهمني أمر أحد هنا، مثلما أنني لا أعني أحدا، حتى حنين، فوجودها وأزمتها هي الجزء الأهم في حياة رامي وكريستين، وهما قد بدءا معي معي رحلة عبر الزمن لست مخولا فيها لمساعدتهما في اكتشاف طريقهما عبر الأنفاق الفضائية التي تتجاوز القوانين.

أما طيفي فسيكون واحدا من رؤى أمي وخالتي تريـزا طبعا، ونادية التي سأصطحبها ـ في خيالها ـ للمرة الأولى والأخيرة!

القسم الرابع

أين أنا؟ النور الشاحب من خلف " الكوفرته " يشير إلى أن الوقت نهار. لكني لا أعرف لماذا أشعر وكأن الوقت مـا زال ليلاً؟ هل فقدت الإحساس بالزمن؟ أشعر أنني لا أستطيع أن أفتح عيني. هل أنام على سريري؟ هذا يعنـي أننـي إذا فتحت عيني الآن سوف أرى الدولاب الضخم بلونـه البنـي القاتم وضلفه الخمس تتوسطها المرآة في مـواجهتي. وإلـى يساري يستقر الجدار بلونه " الروز "، وبموازاة رأسي سوف يكون بإمكاني ـ إذا فتحت عيني ـ أن أرى صـف الكتـب المتراصة فوق " الكومود " البيج الصغير.

ولكن هل أنا نائمة، أم مستيقظة؟ عقلي صـاف تمامـا لأول مرة في حياتي. صمت كامل.. وغريب. لا يمكـن أن أكون مستيقظة ولا أسمع المونولوج الداخلي لرامي.. فكـرة تمر برأسه، تداعيات ذكرياته أو أفكاره التي تشغل عقله، أو حتى حالة من الكآبة الثقيلة التي تمر من روحه إلى روحي. وخزة ألم في قلبي تبدأ من قلبه كلما تـذكر غربـة حنـين الطويلة، الآن لا أشعر بهذا كله. صـمت. عـدم. أو ربمـا كابوس.

فحياتي كلها لم تكن سوى هاتين الحياتين المـزدوجتين اللتين عشتهما معا منذ بدأت في إدراك وجودي. أمارس حياة رامي ذهنيا؛ أحب ما يحبه وأكره ما يكرهـه. أخـاف ممـا يخشاه، وأتألم لآلامه. أتأمل أفكاره، وأصارعها أحيانًا، لكـن منطقها يغلبني في أغلب الأحيان فأتحيز لها كأنها أفكاري أنا. أما حياتي الأخرى فهي حياتي التي أعيشها شاردة، مشوشـة مضطربة الذهن. هذه حياتي الخاصة التـي مـررت بكـل خبراتها بلا أي تركيز. اكتفيت فيها بما يقرره أبـي، أو مـا يقره رامي؛ بمجرد انتقال أفكاره إلي، عبر هذا التيار الخفي الذي ربط بيننا منذ كنا بويضة واحدة. كأن قدر توءمتي مـع رامي قد فرض على أن أعيش بنصف عقـل، مثلمـا كنـا بويضة واحدة انقسمت إلى شخصين.

هل إذا أعطيت الأمر لأصابعي بالحركة الآن ستتحرك فعلاً. وإذا غرزت أظافري في فخذي هكذا.. سأشعر بالألم؟! آه ه. يبدو أنني لا أحلم، لكن لو أن ما أفهمه الآن حقيقي فهذا يعني أنني أعيش كابوسا بالفعل.

الآن أعرف لماذا كنت أحلم كثيرا طوال الليل، أحـلام غريبة، عماد. نعم.. كان هذا هو عماد. حلمت به لأول مرة

في حياتي. كان ظهوره في أي مكان يبدو معه وكأنه نسـمة رقيقة هبت على المكان. شخص رقيق لا يناسب الحياة فـي هذا العالم. ابن موت كما يقولون. لكنه ظهر لي فـي الحلـم مهيبا، وكأنه في موكب حاشد، يرفعه الذين يحيطون به على الأعناق، شاهدت في المسيرة رامي وكريستين، وطنط تريزا وحتى حودة، فارس أحلامي القديم. كان يسير خلف الموكب ويهتف بحماس. لكن لم أفهم ما يقوله. وهو الوحيـد الـذي توقف، وابتعد قليلاً عن الموكب، تأمل عماد بنظرته الحادة، وابتسامته الواثقة التي كان يرسمها على وجهه دائما، ثم بـدأ يسير عكس اتجاه الموكب.

هذا الصمت لم يأت من فراغ. فلم أكن طبيعيـة نهائيـا خلال الأيام الثلاثة الماضية. كنت - تحت ضغط رامـي - أستعيد ذكرياته بإلحاح غريب. لم أستطع أن أسـيطر علـى نفسي، فقد تشـوش عقلـي مـن شـدة تضـارب الأفكـار والذكريات. هربت من حنين مضطرة، وأرسلت لهـا دفتـر مذكرات رامي الذي أوصاني بأن أحتفظ به.

اللقطات التي كان يستدعيها من ذاكرته وتبث إلى عقلي كانت تتسارع، وتتتابع بشكل غريب. أغلقـت علـى نفسـي

الغرفة، يوسف ونسرين يتفهمان حالتي جيدا ويتجنبان إزعاجي في مثل هذه الحالات.

استلقيت على الفراش وأنا أشعر أن رأسي على وشك الانفجار من الصداع. لا أستطيع أن أوقف أفكاره التي يستدعيها من الطفولة، ومن الإسكندرية، ويحلق بها إلى دبي.. شريط كامل كان يمر في رأسي: مشاهد طفولتنا في بيت العائلة. لقطات له وهو ينام في أحضان أمي، تمد وتحكي له ما يحب أن يسمعه، أشتاق لأمي جدا، وأفهم أنه يفكر في عشقه المكبوت لأمي. ابتعاده عنها في صباه خوفًا من بابا الذي يكره تدليلها له. ألعابنا المشتركة مع شلة توريل الذين توافدوا على راسي جميعا؛ على وبسنت وجلال وحودة وجولي، وطبعا عماد.. استعاد شريط ذكرياته معه كاملاً وأبكاني حتى أوجع قلبي. كريستين بكل تفاصيل علاقتهما قبل الزواج. ثم تفاصيل الزواج نفسه، وحياتهما في الإسكندرية حتى ذلك اليوم المشئوم الذي اختفت فيه، عاش ١٥ عاما من عمره في ألم حقيقي لأنه لم يعرف ماذا حدث لها. لكنه أقنع نفسه لسنوات طويلة أنها عادت إلى الدير، وهي الفكرة التي حاول بها أن يحافظ على عقله وحالته

النفسية التي ساءت بشكل كبيـر خـلال الشـهور الأخيـرة تدريجيا.

انهياره الحقيقي بدأ في دبي، رغم أن السنوات الأخيـرة التي بدأ فيها حياته هناك مرت بسلام بعد أن حقـق دخـلاً اطمأن منه على حنين وعلى قدرته على إيقاف نزيـف بابـا المادي الذي كان يبذله راضيا من أجل أن تسـتكمل حنـين حياتها هناك.

تذكر " أولجا " الفتاة الروسية البلهاء المهووسة بنفسـها والتي تعلق بها لأنها تشبه ماريا، أو ربما لأنها ذكرته بهـا، وبعد أن اكتشف عبث الفكرة تعرف على " رولا " اللبنانيـة التي بدأ اكتئابه بسببها، وبعد أن عرف بحملها منه كـاد أن ينهار تماما، لكنه أجبرها على الإجهاض بعد هروبهـا إلـى بيروت.

أتلفت هذه الحادثة أعصابه تماما بسبب إلحاح فكرة أنه تسبب في قتل طفل قبل أن يرى النور. لكـن رغبـه مـن استعادة تجربة تربية حنين وهي بعيدة عنه في قارة أخـرى كان أكبر من أي مشاعر أخرى.

بابا هو الذي قرر أن يدخله إلى هـذه المصـحة بعـد الانهيار الأخير، كان قد أصبح شديد العصبية. يثـور بـلا أسباب موضوعية، وتداهمه أحيانًا حالات من الهياج العصبي تنتهي بنوبات هذيان، له الآن ستة شهور وحالتـه تتحسـن تدريجيا، لولا الآلام العجيبة التي بدأ يعاني منها منذ أسابيع.

كان من المفترض أن نزوره أنا وحنين نهاية الأسبوع. ولكن يبدو.. أن حنين.. لن تستطيع أن تراه مرة أخرى. هل هذا معقول؟ كيف سأواجه هذا الألم؟ لن أسـتطيع مواجهـة احتمال أحزان حنين على يتمها الكامل وفقدانها رامي الـذي كان يمثل كل شيء في حياتها. وسأنهار أمام بابا وماما التي عاشت تولول على حظه التعيس منذ زواجـه وحتـى هـذه اللحظة.

وأنا.. كيف يمكن لي أن أعيش الآن في هـذه العزلـة والصمت القاتل وحدي، بنصف عقل، ونصف روح؟! هـذا الفراغ لا يمكن لأحد أن يملأه. لا يوسف ولا نسرين، ولا أي أحد في هذا العالم.

المذكرات التي أعطيتها لحنين نزعت منهـا الفصـول الأخيرة. خفت أن تفهم منها شيئًا عن مرضـه أو إحساسـه

بالموت. بل خفت أن تدرك شيئًا عن اختفاء أمهـا وشـكوك رامي في قتل كريستين. ويبدو أنني الآن مجبـرة علـى أن أسلمها بقية الأوراق.

لا أعرف ما هذا الوخز المتلاحق في قلبـي؟! كانـت أفكار رامي، مهما بدت مزعجة هي ما يصنع لي الأنس في هذا العالم. لأن حياتي الخاصة لم يكن فيها شيء مبهج وأنـا أعيشها مشتتة، وهو ما أثر على علاقاتي العاطفية التي لـم تنجح واحدة منها. ولم يستمر أي ممن تقدموا لخطبتي أكثـر من ستة أشهر، إذا صمدوا، وكانوا يضطرون في النهاية إلى فسخ الخطبة، لأنني مشوشة، ولأنني، كما وصفني آخـرون، غريبة الأطوار. أشرد منهم طويلاً بلا سبب

تفرغت بنصف عقل لدراسة الطب هربـا مـن فكـرة الزواج التي بدت لي بعيدة، ولا تناسبني وأنا أعـيش حالـة عقلية مزدوجة طول الوقت.

يوسف هو الوحيد الذي أعجب بي للنهاية، وكنت أهرب منه حتى لا تزيد قائمة خطابي الهاربين فردا جديدا، وتلحـق بي سمعة بأنني " أطفش العرسـان "، لكنـه كـان لحوحـا وصبورا. فقد كانت غرابة أطواري هذه هـي التـي تثيـر

فضوله، وشرودي هو الذي يسبب إثارته بشكل غريب، كما أخبرني بعد ذلك. وحتى بعد الزواج تقبلني كما أنـا وتقبـل حياتي " المودية " المتقلبة مراعيـا ظروفـي بـين عملـي بالمستشفى ورعايتي لنسرين وعقلي الشارد في أفكار رامي. وما تبقى له من فتات مشاعري واهتمامي كان سعيدا به.

ولهذا أدركت معه مشاعر الحـب الحقيقيـة، وشـغل تدريجيا مكان حودة - فارس أحلامي القديم - في خيـالي، كفارس حقيقي. وتعلمت منه معنى الحب، والأمان، وأذهلني بإنكار نفسه واحتمال حياتي المضطربة، وشعوري المسـتمر بالألم والحزن الذي اختبرته دون أن تكـون لـي تجـارب حياتية مؤلمة بشكل حقيقي.

أيكون القدر اختار هذا التوقيت لرحيل رامي لكي أحاول أن أرد الجميل إلى يوسف؟! أن أعطيه - للمرة الأولـى - كل نفسي: حياة ذهنية وعاطفية وجسدية كاملة؟ أهي - كمـا كان رامي يقول دائما - لعبة أخرى مـن ألعـاب الـزمن والصدفة، أم تصاريف قدر مكتوب ومحكم ومعروف مسبقًا؟ لم أحسم أمورا كثيرة في حياتي، ومنها مسألة تصاريف القدر

والصدفة. انسقت لأفكار رامي دون أن أختبرهـا، ودون أن أقتنع بها أيضا.

هل أبدأ رحلتي أنا الآن؟ أتعرف إلـى يوسـف بشـكل حقيقي. وأعطيه كل مشاعري التي يستحقها، وأمنحه جسدي بتركيز كامل تعويضا له عن كثير من ممارسات الحب التي لم تكتمل، أو التي كنت أبدو فيها كومة من اللحم بلا مشاعر ولا رغبة، من شدة انشغالي بأفكار وهواجس، بعضها لم يكن يعنيني لكني مجبرة على التفكير فيها.

كيف أفكر هكذا أساسا؟ هل سأستطيع أن أعيش بـدون رامي؟ كنت أعتقد طول عمري أن خط حياتي مرتبط تمامـا بخط حياته وأننا سنموت في يوم واحد. والآن لا أعرف كيف يمكن أن يكون للحياة طعم بدون وجوده فيها، أم أن هذه هي مفاجآت القدر، أو حكمته؟ ربما إنني أعيش فقط مـن أجـل نسرين التي ظلت معي هي الأخرى، وربما سـيمكنني الآن فقط أن أعطيها الوقت والرعاية التـي تسـتحقها، وحنـين أيضا.. سأكون الآن بمثابة أمها وأبيها معا، فهل أسـتطيع أن أعوضها فقد رامي الذي كانت تتنفس بوجوده فـي حياتهـا، حتى لو كان بعيدا عنها لكنها دائما تعرف أنه موجود، يقـف

خلفها، وتستطيع أن تراه أمام عينيهـا إذا احتاجتـه فـي أي لحظة.

وإذا كنت سأستطيع أن أرعاهـا بشـكل مـا، فكيـف سيمكنني إقناعها بضرورة اتخاذ قرار فوري فـي العلاقـة العاطفية المأساوية التي تعيشها والتي حكت لي عنها أخيرا؟

كنت أعول على رامي تماما في هذه المسألة، فهو وحده الذي يملك منطق إقناعها، وهي، رغم عنادها، تستجيب لـه غالبا، بالإضافة إلى أنه يملك مفاتيح التعامـل معهـا وفقًـا لظروف تربيتها وثقافتها التي تتكيف بها مع المجتمـع فـي فرنسا.

أشعر الآن فعلاً بأن قلبي على وشك أن يتوقـف مـن إشفاقي على حنين وإشفاقي على نفسي في مـواجهتي لهـذه الكارثة. كنت أستطيع أن أتفهم العلاقة لو أنها أحبت مسيحيا أو حتى يهوديا، كما فهمت منها. لكـن أن تضـطر لتتـرك حياتها في فرنسا لتعيش في إسرائيل! ما الذي كان يمكن أن يحدث لرامي إذا عرف شيئًا كهذا؟ هي التـي رفضـت أن تذهب مع رامي إلى " دبي " لأن حياتهـا اسـتقرت فـي " باريس"، فكيف لها أن تعيش معزولة في مجتمع خطير كهذا؟

لا أستطيع أن أفهم هذا إلا بأنه محاولة غيـر مباشـرة للانتحار. ولا وجه للمقارنة بين هذا الوضع وعلاقـة أبيهـا وأمها.. لأن علاقتهما نجحت بسبب أن أيا منهما لم يفـرض الجانب الديني على الآخـر، حتـى لا تتعـرض حياتهمـا المشتركة للخطر. أما أن تعيش مع يهودي إسرائيلي متـدين يريد أن يعيش هناك؟ ما الذي يدعوها لذلك؟. ولماذا تؤسـس حياتها على فكرة عنصرية بهذا الشكل.. الحب الأعمى ليس حبا.. هذا ما تعلمته من الحياة.. ولكن كيف أوصل لها هـذه الأفكار. هي التي تقرر وتخطط لحياتها كل شيء، والآن بعد رحيل رامي ربما ستتصور أن ذلك الشخص هو الذي يمتلك الخيوط العاطفية الوحيدة في حياتها. هذه مصيبة.. مصيبة يا رامي ولا أعرف ماذا أفعل فيها فعلاً.

ربما الآن ـ فقط ـ على أن أفتح عيني أولا!

مفتاح الحياة

- ١١ -

من أين يبدأ الجمال؟ هل يبدأ مثلاً من نموذج مثالي لملامح وجه منمقة ذات مواصفات قياسية؟ أم من تكوين جسدي يخضع لنفس المواصفات؟ وهل هذا المثالي النموذجي يمكن بالفعل أن يعمم؟ هل ما أراه جميلاً، بالضرورة، يبدو كذلك لدى الآخرين، أم أن للجمال دائما مواصفات قياسية روحية لا يمتلك أحد أسرارها؟

الجمال عندي دائما يبدأ في اللحظة التي يتم فيها كسر النموذج بعينين خضراوين وأنف دقيق يشبه أنف كليوباترا. لكن هذا الوجه قد يصبح فاتنًا إذا استطال الفك قليلاً أو برزت الشفتان أو ضاقت العينان عن مقاييس الجمال العربي، خاصة إذا كانت هاتان العينان الضيقتان متوهجتين بصخب ترسل إشاراته إضاءة مبهرة قادمة من أعماق الروح.

كريستين كانت تمتلك هذا الجمال الذي يبدو بالنسبة للآخرين نموذجيا؛ وجه مستدير وملامح منمقة، أنف صغير منحوت بعناية ورقة، شفتان صغيرتان منمنمتان. عينان خضراوان واسعتان، وشعرها الطويل ينسدل على كتفيها بلون كستنائي فاتح. كما كانت تمتلك جسدا فارعا رشيقًا

ومتناسقًا، وببشرة بلون الشاي بالحليب. وكل هـذا، بمـرور الوقت، قد أصبح معتاد بالنسبة لي. جمالها، عندي، كان ينبع من الروح.

لكنني في ذلك اليوم بهرت بجمالها وأنا أراقبهـا مـن موقعي نائما على ظهري، عاريا بينما هي تعتلينـي أتأمـل اهتزاز نهديها البديعين على إيقاع حركتهـا الرتيبـة، بينمـا تتدلى من رقبتها السلسلة الذهبية التي تنتهي بقطعة الـذهب المشكلة على هيئة مفتاح الحياة، والتي كنت أهديتها إياها في عيد ميلادها الثامن عشر في ١٨ فبراير، وقبل ستة شـهور من تاريخ هذه الواقعة.

وبفضل عريها الكامل إلا من تلـك السلسـلة والقـلادة الذهبية التهب جمالها، وهو ما أضاف إلى استمتاعي بتقاص ملامح وجهها بفعل اللذة إحساسا جماليـا وحسـيا مختلفًـا. وعندما ألقت بنفسها على صدري تقبل رقبتي بشهوانية، كنت أدفع نفسي إليها لأحافظ على الإيقاع، بينما مفتاح الحياة ينام مستكينًا بين نهديها وصدري.

امتلأت آنذاك برغبة حارقة في أن يتوقف الزمن عنـد هذا الطقس الإيروتيكي، وأن نستمر في نظم قصائد الشـعر

الجسدية هذه إلى الأبد، تحيط بنا تلك الموسيقى الخافتة التـي تتسلل من بين ألحانها همسات بشرية بلا لغة محددة، تخـتلط بتأوهات كريستين الشبقة وتمتزج كلها مع ما يبـدو وكأنـه ترانيم تخطف القلب، وتشف روحي تماما وأنا أتابع النظرات الحانية المطلة من الأيقونات المعلقة في خيالي!!

لكن ألعاب الزمن والصدفة كان لها رأي آخـر. فبعـد شهر واحد جاءتنا البشارة بحنين، وهي الإشارة التي تلقتهـا كريستين من طبيب التحاليل بفزع شديد بينما حاولت أن أبدو رابط الجأش، كما يقولون، أخفي رفيف طيور الفـزع فـي أعماقي بابتسامة حانية مرتبكة، وأنا أقول لها.. مبـروك يـا حبيبتي!

■ ١٢ ■

كانت نادية - بطبيعة الحال - هي أول مـن عرفـت بالأمر، بفضل العلاقة الروحية التي تربط بيننـا، اقترحـت على اسم طبيب موثوق فيه يمكن أن يجري عملية إجهـاض لكريستين تقديرا لموقفنا الصعب.

عندما أستعيد حالتي في ذلك اليوم أجد صعوبة شـديدة في وصفها، لأنني، تقريبا كنت أبدو ذاهلاً ومشتتًا، وخائفًـا، ولأنني أكره الخوف، فقد ارتبكت تماما. بينما زاغت نظرات عيني كريستين واصفر وجهها حتى إنها بدت بشحوب وجهها كأنها مريضة مرضا خطيرا. أمسكت بيديها وقلت لها برقـة إن الطبيب الذي سنبحث عنه هو الذي ستتابع معـه حملهـا حتى تضع المولود. وفي هذه المرة اصفر وجه نادية التي لم تكن تتوقع هذه الإجابة. لكني كنت علـى يقـين أن قـرار الإجهاض هو مثل شهادة موت كريستين لا يمكـن لهـا أن تحتمله. كما أنني كنت أشعر برغبة حقيقية في رؤيـة وجـه الطفل الذي بالكاد، كان قد تشكل، في رحم كريسـتين علـى ضوء الشموع وعلى مرأى من الأيقونات..

* * *

لم يكن أمامنا سوى الزواج. وكنت قد تسلحت بـالخطط البديلة لهروبنا أنا وهي من المنصورة إذا لم يوافق أبي على الزواج، لكن أمي هي التي لعبت دور البطولة، فبعد أن أبدت امتعاضها للحظات، سرعان ما رسمت ابتسامة حانية وهـي تؤكد لي أن الخيرة فيما اختاره ا ، وأننا لا حيلة لنـا فيمـا يقدره لنا.

واستخدمت منطقها هذا في إقناع أبي وتخفيـف حـدة غضبه، قبل أن تنهي كلامها معه قائلة: ده حتى سيدنا النبـي نفسه اتجوز ماريا القبطية. ثم سألته:

ـ ولا أنت ضميرك هيبقى مرتاح لو سابها كده؟! أنت عندك بنات يا حسين، وبنات الناس مش لعبة.

لكن غضب أبي في أول الأمر وآخره لم يكـن سـوى غضب الرحيم الذي يشفق علينا من رعونتنا، ويشفق علـى بشكل شخصي من أن أبدأ مسئوليات الحياة في هـذا العمـر الصغير. وخوفًا من أهل كريستين الذين لن يغفروا لهـا مـا فعلته أبدا، حتى رغم احتفاظها بدينها، فهـي، بالنسـبة لمـا يعتقدونه، ليست سوى زانية.

اشترى أبي لنا غرفة نوم جديدة، وأعاد طلاء البيت كله، وأوصى أمي ونادية بحماية كريستين، وعدم استضافة أي أحد في البيت حتى تضع مولودها في سلام، وكلف بواب العمارة بالتشديد على عدم دخول أي شخص غريب إلى العمارة وهدده بعنف إذا حدث شيء كهذا.

أما " طنط جورجيت " فقد أبدت قسوة قلب لم أتوقعها منها منذ معرفتها بالأمر، وتبرأت من كريستين وأصرت بعناد على ألا تراها واعتبرتها في عرف الأموات، لكنها انهارت قبل الولادة بأيام وحضرت لزيارة كريستين في سرية شديدة دون أن تخبر عمي جورج - الذي قدم طلب نقل للقاهرة بعد زواجي من كريستين وتوفي بعد أيام من ميلاد حنين - أو أي من أخوال كريستين الذين كانوا يرسلون لي يوميا رسائل تهديد شفاهية وأحيانًا كان خالها "موريس " يتصل بي هاتفيا ليؤكد لي أن استمرار الحال على ما هو عليه من رابع المستحيلات.

* * *

ليلة الولادة كانت واحدة من أصعب الليإلى التي مرت علي، فقد تحولت في تلك الليلة إلى كتلة من الخوف..

الخوف من الوضع الجديد ومن تهديـدات أهـل كريسـتين، وخوفي عليها هي التي تضع مولودهـا الأول ولـم يتعـد عمرها العشرين. وبسبب توتري الشديد، اصطحبني أبي على " مقهى أندريا " حيث قضينا طول النهار وحتى اتصلنا بأمي لتخبرني بصوت متهدج بالفرح: بنت زي القمر يا رامـي.. زي القمر يا حبيبي.. تتربى في عزك..

وعلى الأريكة الوثيرة، التي قضيت عليها ليلتي الأولى كأب، كانت الأسئلة والأفكار تلاحق رأسـي بعنـاد، عـن المستقبل، وكيفية تدبير نفقات الإعاشة وما زال أمامي أكثـر من شهرين على اختبارات السنة النهائية بكلية الحقوق. هـل أستجيب لرغبة أبي بالعمل معه في الأعمال الحـرة؟ ومـاذا عن حلم العمل بالنيابة أو المحاماة؟ وكيف سأستطيع حمايـة هذه الطفلة الصغيرة الجميلة وأمها من المخاطر المحتملة؟

ما كان بإمكانه أن يخفف عني قليلاً هو الإحساس الجديد الذي تفجر في البيت بعد الولادة.. الفرحـة الطاغيـة التـي غمرت ماما بحفيدتها. وأبي الذي كان يبدو سعيدا بها أيضا.. يدخل الغرفة كل بضع دقائق ليطمئن عليها. أما ناديـة فقـد كانت شديدة السعادة بلقبها الجديد " عمتو نادية ".

لكن هذا كله لم يمنعني من التفكير في المفارقة الكبيـرة التي بدأت أعيشها منذ الخامس عشر من أبريل ١٩٨٣ كأب ما زال أبوه يدبر له نفقات معيشته، متـزوج مـن مسـيحية مطاردة من أهلها، ولنا ابنة.. طفلة رائعة.. لا نعرف علـى أي دين سنربيها!

■ ١٣ ■

الجري في المحاكم بالنهار، والعمل الإضافي بمكتب أحد المحامين مساء، مع الراتب الشهري الإضافي الذي وفره لي أبي نظير منصب شرفي كمسئول عن الشئون القانونية في مكتبه، يسرت حياتنا أنا وكريستين، لكن ملاحقات أهلها ومضايقاتهم المستمرة، خاصة بعد وفاة عمي جورج جعلت من حياتنا جحيما.

إلى الإسكندرية، وفي سرية تامة، قررنا الرحيل، وبفضل مجموعة من أصدقاء والدي استطعت تدبير وظيفة لا بأس بها بالشئون القانونية في شركة تصدير كبيرة. كما أجر لي أحدهم شقة تقع على الكورنيش، اعتاد تأجيرها للمصطافين في الصيف بأجر رمزي إكراما لوالدي.

استعدت الثقة في الحياة مرة أخرى، واستمتعت مع كريستين بحياتنا الجديدة، بالحرية، وبالشعور بالأمان. وعدنا لممارسة الجنس بمتعة، وهو ما جعلني أفكر في الأسابيع الأولى لوجودنا بالإسكندرية إن ممارساتي للجنس ترتبط بوجودي قريبا من البحر!

أما استمتاعنا الأكبر فكان يتجلى في مراقبة حنين وهي تكبر أمام أعيننا يوما بعد آخر، تدهشنا بروحهـا المرحـة، وخفة ظلها، وباستثناء الفترة السخيفة التـي تعـذبت فيهـا وعذبتنا أثناء التسنين، فقد كانت طفلة بشوشة رائعة.

هذه الذكريات تبدو لي غريبة فعلاً، وربما لم تكن تمـر على خاطري كثيرا قبل أن أجلس لكتابتها في هذه المذكرات. كأن الأحداث السيئة التي أعقبت ذلك محت ما قبلها ولم يعـد له وجود. أدركت الآن مثلاً أن حياتي في الإسكندرية في هذه المرحلة تتمركز حول ذلك اليوم الكئيب الذي بـدأت بعـده أعيش كارثة حقيقية.

فقبل عام واحد من بلوغ حنين سن المدرسة، عدت على البيت لأجدها تجلس في غرفة النوم بمفردهـا. كانـت قـد استيقظت من النوم، بينما لا يوجد أي أثر لكريسـتين، ولـم تفلح محاولاتي في سؤال حنين عن الوصول إلى أي شـيء مفيد.

كل شيء في مكانه: ثيابها كلها، أحـذيتها، زجاجـات العطور، أدوات الماكياج، لا أثر لأي شيء سوى هذا الغياب المريب.

كل الأسئلة التي يمكن طرحها في موقف كهذا مرت على خاطري بسرعة، ولكن بلا إجابة. هل خطفوها؟ هل قتلوها؟ هل يمكن أن تصل بهم الجرأة على هذا الحد؟ هل غضبت مني فقررت أن تترك البيت؟ كانت الأمور بيننا جيدة.. وحتى لو فعلت ذلك، فلن تترك حنين. ربما لا يتعدى الأمر كونها ذهبت إلى البقال المجاور أو أنها شعرت بتعب مفاجئ فذهبت إلى المستشفى.. ولكن لماذا لم تصطحب حنين أيضا؟

اتصلت بكل معارفنا دون جدوى وأنا أسترق السمع لأي وقع خطوات أو حركة قرب باب الشقة، على أمل أن أجدها واقفة أمام الباب لتنهي فصول هذا الكابوس.

ولم أذهب لعمل محضر بقسم الشرطة إلا بعد أن تأكدت من أنها لم تذهب للمنصورة أيضا. ثم اصطحبت حنين إلى هناك لتجلس مع جدتها وجدها. حاولت الذهاب إلى أخوالها، لكن والدي منعني مؤكدا أنه عرف أنها لم تذهب إلى هناك. وطلب مني الذهاب للإسكندرية لإجراء كل ما يمكن من وسائل البحث عنها، وبعدها يمكن للشرطة أن تتحقق من مدى تورط أهل أمها في اختفائها!

بعد عودتي إلى الإسكندرية مرة أخرى بدأت أتردد على كل المستشفيات، واستعنت ببعض أصـدقائي مـن رجـال الشرطة في إجراء اتصالات واسعة بالأقسام في الإسكندرية للتأكد مما يفيد عن تعرضها لحادث من أي نوع.. ولكن دون جدوى.

الإجابات المفتوحة على اتساع الاحتمالات زادت مـن قلقي. فقد كانت فكرة اختفائها بهذا الشكل الغـامض قاسـية جدا. ثم ماذا سيحدث في المستقبل؟ كيف سأعيش أنا وحنـين بدون وجودها معنا؟ كان السؤال ينفض روحي بالألم، ويوجع قلبي بالشكل الذي جعل من فكرة الحياة تعاسة تفوق قـدرتي على احتمالها.

بعد شهر كامل، وبعد أن فقدت الأمل في العثور علـى كريستين كان على أن أكفكف أحزاني وأفكر في السفر بحنين إلى مكان بعيد، فقد تكون هي هدفهم التالي، أو قد أكون أنـا الهدف الجديد. ولكن على أين؟ ما هو المكان الذي سأضـمن أن تعيش فيه حنين آمنة من شر غامض متربص؟!

الحل اقترحه " عم رضا الشايب " صديق والدي الـذي كان على علاقة بمجموعـة مـن الدبلوماسـيين بالسـفارة

الفرنسية، وقبل أن أستخرج التأشيرة كنت قد اتصلت بصديق طفولتنا أحمد حسين الذي هاجر إلى فرنسـا ويعـيش مـع زوجته الفرنسية " سيسيليا " و " ابنتهما " " ناتـإلى "، التـي ستصبح صديقة حنين لاحقًا.

أصر أحمد على أن تعيش حنين معهم في البيت، ولكني أشفقت عليه، وخشيت إثارة المشاكل مع زوجته - رغم أنها رحبت كثيرا باستضافة حنين - فضلت البحث عن مدرسـة داخلية مناسبة على أن أعود لرؤيتها مرة كل شـهرين، وأن تقضي العطلات الطويلة مع أحمد حسين وعائلته.

عندما عدت إلى مصر، لم أكن أعرف إذا ما كنت قـد تخلصت من كابوس مقبض أم أنني بدأت أعيشـه بالفعـل، فعندما دخلت غرفتي في المنصورة واجهت إحساسا مرعبـا بالوحدة وشعرت بالغبن، وبمدى قسوة لعبة الزمن هذه المرة. بدأت أشعر بخلو حياتي من وجود كريستين بشـكل نهـائي، وأتذكر ملامح حنين وهي تودعني لآخر مرة فـي بـاريس فيكاد قلبي يتوقف كمدا. وكـان علـى مقاومـة الاستسـلام للانهيار.

ـ ١٤ ـ

كلما استبد بي الألم تذكرت عماد، الـذي كـان فقـده موجعا، ضربة في العمق، فقد مبكر لصديق الطفولة والصبا، الذي كان يكملني بشفافيته ونقائه الكاملين. في مدرسة الملك الصالح، وفي الملك الكامل من بعدها عرفت معنى أن يفرقوا بيننا أثناء حصة الدين. يخرج هو و " رامز " و " روجيه " و " باسم " قبل بدء الحصة، ليأخذوا هم حصة الدين مع الأستاذ كمال مدرس العلوم المسيحي.

" نفسي أصحى ألاقي الناس كلهم دين واحد ".. هكـذا كانت كريستين تهمس لي كل صباح قبل أيام من اختفائها.

فرقوا بيننا في المدرسة، وجاء ملك الموت ليفرق بينـي وبينهما كليهما للأبد.. بينما حنين.. قلبي.. هـذه الصـغيرة الرقيقة تعيش على بعد آلاف الأميال بلا أب ولا أم، تستبدل حياتها بحياة جديدة دون أي ذنب.

صحيح أن أمها كانت تتمنى لها أن تعيش في فرنسـا، ولكن بالتأكيد ليس بهذا الشكل. ولهذا علمتها الفرنسـية منـذ بدأت في الكلام، تماما كما تعلمتها هي، وأتقنتها عبر دراستها في مدرسة العائلة المقدسة أو **Saints Familles** العريقـة

حيث كنا نصطحبها أنا وعماد في الأيام التي كانـت تتـأخر فيها على " الأوتوكار " كما كانت تسميه. نسير عبر المختلط وحتى مزلقان القطار، ثم ننحرف يسارا لنمر أمام المدرسة " الأميرية الإعدادية " ثم " الإسلامية وحتى نصل إلى المبنـى العريق الأوربي الطراز ونودعها عند الباب. اكتشفنا العـالم سويا، تعلمنا تدخين السجائر معا. ما زلت أذكر اليوم جيـدا. أعلى مزلقان الهابي لاند، على المشاية العلويـة، فـي يـوم شتوي بارد مصحوب بالريح، حاولنا إشـعال أول سـيجارة لمدة نصف ساعة دون جدوى. وفي النهاية أشعلها عماد من الفلتر. كدت أقتلك يا عماد غيظا قبل أن نسقط على الأرض من شدة الضحك.

كنا نرى الأشياء نفسها بطرق مختلفـة، أحدثـه عـن شخص يدعى " ستيف أوستن " بطلا لحلقات يجسد فيها رجلا ذا قدرات خارقة فيحدثني عن شخص شبيه لـه شـاهد لـه حلقات بعنوان رجل بستة ملايين دولار! أحكـي لـه عـن اكتشافي للذة مدهشة مصحوبة بسـريان مـا يشـبه التيـار الكهربائي في كل جسدي بعد أن أحك عضوي بشكل مستمر، فيحكي لي أنه قرأ عن شيء مشابه يسـمى العـادة السـرية

وبعدها نكتشف أننا نتحدث عن نفس الشـيء فنغـرق فـي الضحك.

اكتشفنا عالما من العري، وأجساد العاريات النموذجيات الكاملات الجمال يستعرضن أجسادا بـلا ندبـة واحـدة ولا علامة أو حتى " وحمة " في مجلات " الـبلاي بـوي " و " فنتاوس " التي كان عماد يسرقها من خالـه عمـاد. وهـي المجلات التي أثرت في صياغة عوالم جنسية خيالية.. تماما مثل الأفلام الجنسية التي شاهدناها في مرحلة لاحقة. ومـن حسن حظي أن ممارساتي الجنسية الأولى كانت مع ماريـا، التي خففت كثيرا من صدمة اختلاف الجنس المرئـي وأداء ماكينات الجنس الآلية في الأفلام عن الممارسة الفعلية.

في طفولتنا، كنا نمارس عملية الهروب الكبير، نطلـق سيقاننا للريح بمجرد أن نشاهد ذلك الشخص المريب الـذي كان يقتني دراجة يتجول بها في كل مكان. ماذا كان اسـمه؟ حامد الشويلي على ما بعد أذكر، أو شيئًا من هـذا القبيـل. أخبرنا جلال أنه " بتاع عيال " وله خطط عديـدة ومتنوعـة للإيقاع بضحاياه. وامتنعنا عن الذهاب إلى سوق الحمام فـي الشيخ حسنين عندما اكتشفنا أنه يذهب كل ثلاثاء إلى هنـاك

مع مربي ومطيري الحمام. يبحث عن ضالته، وفـي نفـس الوقت يبيع بعض أفراخ الحمام النادرة التي يقتنيها.

تقريبا، اشتركنا في ممارسة أغلب تجاربنا الأولى، حتى تعاطى الحشيش في المرة الأولى التي ذهبنا فيها إلى "الغرزة " التي كانت تقع في خرابة تجاور بيـت مهجـور قبـل أن تتحول إلى مبنى حديث. كنا قد دخلنـا المرحلـة الثانويـة، وقررنا أن نقلد الكثير من زملاء الدراسة وبعض أفراد الشلة في توريل الذين بدءوا قبلنا في تعـاطي الحشـيش. نتـابع طريقتهم في رص الحجارة باقتطاع كتل رقيقة متساوية مـن قطعة الحشيش ذات اللون البني الـداكن، ووضـعها أعلـى رءوس الحجارة الممتلئة بالمعسل، بعد فتح ورقة السـوليفان الصغيرة بأيدي مدربة.

عندما جاء دور عماد أمسك بالغابة بثقة مفتعلة، وبـدأ يشد أنفاسا متقطعة، ثم جذب نفسا أخيرا طويلاً بعض الشيء. وقبل أن ينتهي منه، فوجئت بالغابة تقع من بين يديه، ثم مال إلى اليمين قليلاً قبل أن يهوي إلـى الأرض بـلا حركـة. وحاولت جاهدا أن أمنع نفسي من الضحك الهيستري الذي أن يمزق أحشائي من فرط درامية الموقف. لكننا أطلقنا العنـان

للضحك طول المساء أثناء جلوسنا في الصالة العلوية لنـادي الشرطة حيث كنا نلتقي مع الشلة كل مساء.

اكتفينا بعدها بشرب النبيذ والبيرة في " بـار أنـدريا " الضيق بأنواره الحمراء الداكنة والذي يقع مدخله في الشارع الضيق المجاور لمقهى أندريا. أو نهرول إلى سرادق خـط، يغني فيه " أحمد صقر " بعض أغانيه الشعبية المعروفة فـي المنصورة وما حولها، أو أي من حفلات الزفاف التي تقـام في نادي الشرطة أو " استاد المنصورة " إذا عرفنا أن " خالد عجاج " يغني فيها.

الآن ليس لدي سوى هذه الوحدة القاتلة.

■ ١٥ ■

لم أفهم سر زيارة موريس ـ خال كريستين ـ الغامضة لوالدي في المنصورة. فقد كانت الصلات مقطوعة بعد انتهاء التحقيقات في اختفاء كريستين منذ عدة سنوات. حتى طـنط جورجيت انقطعت عن الاتصال بعد سفر حنين، وهـو مـا سبب لي الشعور بالراحة لأنني كنـت أخشـى أن يعرفـوا مكانها. فهل أراد موريس بزيارته هذه أن يعرف مكانها، أم أن لديه شيئًا يريد أن يخبرنا به بخصوص كريستين؟

كان الغضب في أعماقي يتزايد كلما مر الوقت وأنا في طريقي من الإسكندرية إلى المنصورة كل طرقة من طرقات عجلات القطار الرتيبة على القضبان كانت ترفع من درجـة تحفزي، وفي أعماقي كان إحساسي راسخًا بأن المأساة التـي أعيشها كان لـ " موريس " دور في تدبيرها بشكل ما. ضيق الأفق، غبي، ومريض نفسيا. يـدعي التـدين، ولا يفـوت الفرصة للذهاب إلى الكنيسة وأخذ بركة الرهبان والقساوسة. لكن لم يرمش له جفن وهو يقرر أن يسمم حياتي.

نزلت درجات سلم محطة المنصورة مهرولا، واتجهت صوب أول " تاكسي " وجدته وطلبت منه التوجه إلى شارع حسين بك.

وطلبت منه أن يتوقف أمام الشارع الضيق المؤدي إلى حي " الحسينية " والذي يقع بيت موريس في منتصف.

لم أعد أذكر الآن كثيرا من التفاصيل، لكن الأمر انتهى بي أنا هو وبعض جيرانه وصبيان الورش الواقعة أسفل بيته، في قسم الشرطة، والدماء تسيل من وجهي ووجهه، ولم نخرج من هناك إلا بعد تعهد متبادل بعدم تعرض أي منا للآخر.

بعد هذه الواقعة بدأت زياراتي للمنصورة تقل تدريجيا، وتتباعد الفترات التي تفصل بينها. أحيانا كانت أمي تصطحب نادية ويأتيان لزيارتي في الإسكندرية. وكنت أحاول أن أغرق نفسي في العمل بشكل يكاد يكون هيستيريا، أبرره باحتياجي لتوفير إعاشة ودراسة حنين في فرنسا. ولكني في الواقع كنت أريد أن أهرب من التفكير في الموضوع حتى أستطيع أن أشفى من الاكتئاب الذي بدأت أعراضه في ملاحقتي وعلى مدى السنتين اللاحقتين لسفر

حنين، وحتى تلقيت المكالمة الهاتفية من مصطفى الشرقاوي " زميل دراستنا الذي كان يحادثني من أبو ظبي ليخبرني أن الشركة التي يعمل بها افتتحت فرعا لها في دبـي، وتطلـب موظفين جددا بمرتبات مغرية. ولم أتردد لحظـة. أخبرتـه بموافقتي. وقلت له إنني سأبدأ في تجهيز أوراقي فورا.

كانت فرصة السفر إلى " دبي " في ذلك الوقت رائعـة لأكثر من سبب، فهي ستتيح لي مغادرة هذا الجحيم اليومي، وتوفر لي نفقات حنين بشكل جيد، كما ستعطي أبي الفرصة للتوقف عن مساعدتي التي تستنزفه تدريجيا. كما أنها ستتيح لي فرصة السفر لفرنسا بشكل أسـرع وأسـهل، أو حتـى استقبال حنين في دبي إذا شاءت.

ـ ١٦ ـ

بعد دخول " رولا " جدول التفاصيل اليومية بدأ فصـل آخر من حياتي، كان قد مر على وجودي في دبـي عامـان كاملان، تخللتها علاقات متقطعة، أطولها علاقتـي بأولجـا الروسية.

شاهدتاها في أحد الملاهي الليلية تجلس مع مجموعة من الفتيات اللاتي بدون لي لبنانيات بأزيائهن العارية وملامحهن الشرقية التي تستعير لمسات غريبة قاتلة. تابعت الراقصـين على ساحة الرقص العالية نسبيا من مستوى أرضية المكان، بينما أختلس النظر إليها، وأطيل التحديق بها عندما لاحظـت أنها تبادلني النظرات. طلبت من النادلة الفلبينيـة أن تـذهب إليها وتسألها إذا كان ليدها مانع مـن مشـاركتي الطاولـة. فوجئت بها بعد دقائق تقف أمامي بجمالها الفاتن وهي تسألني بالإنجليزية عما إذا كنت أمانع من جلوسها معي.

وعبر الحوار المغلف بالتحفظ والأسئلة النمطية عرفـت منها أنها من موسكو وأنها جاءت إلى دبي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وأنها حاصلة على دكتوراه، وأن لديها خبرة كبيرة في مجال تخصصها.

مسألة الدكتوراه جعلتني أبدي فضـولي فـي معرفـة تخصصها الدقيق فابتسمت وهي تقول:

- ستريب **Strip**.

ولم أفهم ما تقصد.. فقلت لها:

- هل هذا فرع من فروع الكيمياء؟

فضحكت وهي تفسر لي تخصصها بشـكل واضـح لا لبس فيه:

- ستريب.. ستريبتيز.. ألا تعرف عروض التعري؟!

قلت لها ضاحكًا إن معرفتي بذلك لا تتعـدى السـمع، فقدمت لي وعدا بأن تحقق لي فرصة مشاهدة أول عـروض التعري، وهو ما فعلته في نفس الليلة بغرفتها في الفندق الذي يقع الملهى الليلي في طابقه الأخير.

وبعد عدة أسابيع استطعت إقناعها أن تنتقل بعروضـها المثيرة إلى شقتي. كانت محترفة تماما. تجيد تغيير طريقتها وحركاتها في كل شيء. وتعلقت بها بسرعة، ربمـا لأنهـا ذكرتني بماريا رغم أنها كانت طويلة ورشيقة وشعرها البني المجعد منسدل حتى أسفل ظهرها. وأنوثتها طاغيـة. لكـن عينيها الخضراوين كانتا مراوغتين مثل عيني ماريا، تجمعان

الغموض والإثارة وربما تشيان بشيء من المكر، لكنهما في نفس الوقت يشعان بالإحساس بالنقاء الداخلي، خاصة عندما تضحك ضحكتها الجميلة التي تجعل من ملامح وجهها لوحة جمال فاتنة.

لكنني سرعان ما اكتشفت أنها لا تجيد أي شيء سوى التعري وممارسة الجنس التي كانت خبيرة بفنونه، وبالأوضاع الغريبة التي كانت مغرمة بها، وما عدا هذا فالحياة بالنسبة لها لم تكن سوى مجموعة من الأرقام. تحسب حياتها في دبي بالساعات، عملها في الملهى الليلي وسهراتها مع الزبائن وأوقات نومها. أما علاقتها بي فليست سوى محاول للهروب من علاقات أخرى شديدة الوطأة، أو الهروب من الممارسات الشاذة والوحشية التي كانت تتعرض لها من بعض الزبائن.

لم تكن تعرف شيئًا عن العالم ولا مصر. في أول لقاء جمع بيننا أخبرتني أنها تعتقد أنني من تركيا، وظلت حتى آخر لقاءاتنا على قناعتها، فهي لا تعرف شيئًا على الإطلاق عن مصر. ولم تكن لديها الرغبة في إجهاد نفسها بالتعرف

على مجتمع آخر من خلالي. ثم إن الفرق بين مصر وتركيا بالنسبة لها لا يعني شيئًا من الأساس.

كانت علاقتي قد بدأت بها بعد أيام من مغادرة حنين لدبي وهي الزيارة التي قررت حنين خلالها أن تستقر في باريس لعدم قدرتها على احتمال الحياة في دبي. قالت لي إنها ارتبطت بباريس.. فلكل صداقاتها وعلاقاتها وفرص العمل المتاحة لها هناك. وأكدت لي أن وجودها في دبي حيث يستهلك العمل كل وقتي سيزيد من شعورها بالوحدة، بينما زيارتي لها في فرنسا أفضل لأنه يتيح لنا أن نقضي أوقاتا أطول معا، خاصة عندما تتزامن زياراتي مع عطلاتها الطويلة.

وهكذا أحسست أنه بإمكاني أن أعيش حياتي بعد أن راودني الشعور بالاطمئنان نسبيا على حنين بعد تكيفها الكامل مع المجتمع الذي تعيش فيه.

أما " رولا " فقد جذبت انتباهي من اللحظة الأولى بابتسامتها الحزينة الهادئة، والتي ساهمت في اقتناعي سريعا بوثيقة التأمين على الحياة التي كانت قد حضرت من أجل إقناعي بالاشتراك فيها. عيناها السوداوان ضيقتان لكنهما

تشعان بالحيوية والذكاء. وجهها يميـل لأن يكـون مربعـا، وذقنها الرقيقة مدببة بدرجة هينة، وشفتاها الواسعتان تزيدان من جاذبيتها. اتصلت بها هاتفيا عدة مرات بدعوى السـؤال عن تفاصيل تخص الوثيقة، وبالتـدريج طالـت المحادثـات تدريجيا حتى قبلت دعوتي لتناول القهوة خارج حدود الشركة التي أعمل بها.

التقينا لأول مرة في المقهى اللبناني الذي يقع في المبنى الضخم الذي يحتله " مركز الغرير "، وهو اللقاء الذي أتـاح لي اكتشاف جوانب أخرى من شخصيتها بعيدا عـن أجـواء العمل والرسميات. وهي جوانب روح الدعابـة والمعرفـة العميقة بالموسيقى والذوق الخاص في الاستمتاع بالحياة.

فقدت رغبتي في الحديث من فرط استمتاعي الطريقـة التي تتكلم بها، بلكنتها اللبنانية المميزة، وبحيويته، ولباقتهـا، وطريقتها في تكوين رؤيتها لشئون الحيـاة التـي تفلسـفها بوجهات نظر عميقة.

هذه الفلسفة التي أكسبتها قدرة مذهلة على التكيف مـع الحياة، مهما كانت قسوة الظروف التي مرت بهـا. ولهـذا كانت تحكي لي عن حياتها وهي ترسم ابتسـامة لا مباليـة،

وبنبرة صوت محايدة كأنها تتحدث عـن إنسـانة أخـرى. أخبرتني عن حياتها في باريس خلال سنوات الدراسة. قالت إنها وبسبب الحرب الأهلية حاولت أن تسـتمر بعـد إنهـاء دراستها هناك. واضطرت، بسبب قلة الفرص المتاحـة، أن تعمل كنادلة في أحد المطاعم، ثم كموديـل، لكـن مقـاييس جسمها الشرقية، رغم أنها تبدو رشيقة، جعلتها تخفـق فـي الاستمرار. ومع استمرار الظروف الشاقة التي وسمت حياتها في باريس وحلول الهدوء نسبيا في بيروت قررت أن تعـود على لبنان.

بعد أسابيع قليلة ستخبرني أن السبب الحقيقي لعودتهـا إلى لبنان هو الشخص الذي ارتبطت به هناك، والذي كـان رافضا لأن يغادر لبنان أيا كانت الظروف. ثم فاجأتني وهي تقول لي ببساطة شديدة ودون أن تفقد ابتسامتها، إنه قتل في الحرب!

لم أكن أحتاج إلى الكثير من الذكاء لأدرك أنها صاحبة خبرة كبيرة في الحياة، وبالتإلى كان من السهل أيضا أن أفهم أنها لا تريد أن تتورط في علاقة عميقة، وكـان هـذا هـو بالضبط ما أحتاج إليه، فلم أكن مستعدا لأن أخوض تجربـة

حب تنتهي بفقدان من أحبها. لم أعد أحتمـل شـيئًا كهـذا. بالإضافة إلى أن اختفاء أو موت كريستين قد قتل في أعماقي شيئًا فقدت بعده الرغبة، بالشكل الذي كانت عليه الأمور قبل ذلك. أعتقد أنني عشت لسنوات مصابا باكتئـاب حـاد دون أدنى محاولة للعلاج. ودون أن أدرك أن المرض النفسي قـد تمكن مني بقوة ودون تفهم حقيقي لأسباب انطفـاء شـهوتي خلال كل تلك الفترة.

وهكذا، وبعد عدة لقاءات كان من السهل أن نصل على اتفاق مثالي لشكل العلاقة التي بدأت مع انتقالها من شقتها في " بر ديرة " إلى شقتي المطلة على " دوار السمكة"، قريبا من مستشفى المكتوم. أشاركها الطعام والقراءة وسماع الموسيقى ومشاهدة التليفزيون.. والفراش. أما الجنس فقد كنا نمارسـه كعشيقين يمكن أن تنتهي علاقتهما في أي لحظة. نضع اللـذة فوق أي اعتبار، ويتفنن كل منا في إبهار الآخـر بالمتعـة. وكأننا نؤدي دورا في فيلم جنسي يبـدأ بـالتعري وينتهـي بالأورجازم دون أن نعطي الفرصة لمشـاعرنا أن تتغلـب علينا، وهو ما كفل استمرار العلاقة لعامين متواصلين.

واكتشفت، بعد تأمل، أن علاقتي بها كانت نقيض علاقتي الحسية بكريستين، فمع كريستين كانت اللذة التي نشعر بها يغطيها إحساس صوفي كأنها لذة الوجد لدى المتصوف.. اتحاد للجنسي مع الروحي، اقتراب من المقدس. بينما علاقتي برولا كان فيها تأكيد على اللذة كهدف أساسي قبل أية قيمة أخرى، حولناها بمرور الوقت إلى ما يشبه الفلسفة، ليست إباحية ولا انتهاكًا للمقدس، وإنما تقديس الهدف الذي يتناقض مع فكرة التناسل، لهذا انهارت هذه العلاقة فورأن علمت أنها حامل.. وإجهاضها كان الفتيل المشتعل الذي ينتهي بشرايين عقلي.. الفتيل الذي قادني إلى هذه المصحة الكئيبة.

تخلصت من عقدتي أخيرا، فلم تمت رولا، بالعكس، لأنني اتخذت بإرادتي قرار انفصالنا النهائي، وقررت لها موت الجنين لأنها أخلفت عهدها. ولكن.. هذه هي الحياة.. وما زلت أذكر جملة أوكتافيو باث وأرددها هنا مع نفسي أقضي بها على وحدتي اللانهائية: " من أجل الحب نسرق من الزمن الذي يفنينا بضع ساعات نحولها إلى فردوس تارة وإلى جحيم تارة أخرى وفي الحالين كليهما يتمدد الزمن

ويفقد معياريته "، نعم.. لكنه الآن يقرر مواجهتي فـي تحـدٍ صارم، يخفي بابتسامته الصفراء أنيابه الحادة التي سيعلن بها فنائي.. بحيث لا يكون أمامي أية خيارات. فريسة تساق إلى قدرها المحتوم، وعلى الآن أن أفاجأه أنا أيضا.. فهل سأتمكن من ذلك؟ هل يمكنني إعلان انتصاري على الـزمن ولـو.. لمرة واحدة وأخيرة؟!